الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل ط1: 202035076189

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر تخصص: أدب حديث ومعاصر

بعنوان:

تجليات الخطاب البيئي في رواية مدن الملح لعبد الرحمان منيف –قراءة في النسق الثقافي-

إعداد الطالبة:

معمري شروق

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة الأساتذة:

د/ ساكر المسعود	**الرتبة: أستاذ التعليم العالي**	**جامعة المسيلة**	**رئيسا**
أ.د/ مجناح جمال	**الرتبة: أستاذ التعليم العالي**	**جامعة المسيلة**	**مشرفا ومقررا**
د/ أرفيس مسعودة	**الرتبة: أستاذ التعليم العالي**	**جامعة المسيلة**	**ممتحنا**

السنة الجامعية: 2025–2026

* ملحق بالقرار رقم ...1082... المؤرخ في ...27 ديسمبر 2020...
الذي يحدد القواعد المتعلقة بالوقاية من السرقة العلمية ومكافحتها

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مؤسسة التعليم العالي والبحث العلمي:

نموذج التصريح الشرفي
الخاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

أنا الممضي أسفله،

السيد(ة): معمري شروق الصفة: طالب، أستاذ، باحث طالب

الحامل(ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم 211802866 والصادرة بتاريخ 2025/10/06

المسجل(ة) بكلية / معهد الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

والمكلف(ة) بإنجاز أعمال بحث (مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه).

عنوانها: تحليلات الخطاب البيئي في رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف قراءة في النسق الثقافي

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه .

التاريخ: 2026/04/07

توقيع المعني (ة)

نظر و صدق على توقيع
السيد: المعني
بتاريخ: 2026 جوان 07

رئيس المجلس الشعبي البلدي
و بتفويض منه
ضابط الحالة المدنية
حمودة محمد



** شكر وعرفان

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا العمل، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

أتقدم بخالص عبارات الشكر والتقدير لكل من ساهم في إنجاز هذه المذكرة، سواء من قريب أو بعيد، ولكل من مد لي يد العون وشجعني طيلة هذا المسار.

كما أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف على دعمه القيم، وتوجيهاته السديدة، وصبره في متابعتي، فله مني كل الاحترام والتقدير.

ولا يفوتني أن أعبر عن عظيم امتناني لأسرتي الكريمة، خاصةً والديّ العزيزين، على دعمهما اللامحدود، ودعواتهما التي كانت سرّ توفيقي.

كما أتقدم بخالص الشكر إلى زوجي الغالي سفيان، الذي كان سندي الحقيقي، ووقف إلى جانبي بكل حب وصبر، فكان دعمه أكبر عون لي على إتمام هذا العمل.

وأشكر كذلك إخوتي الأعزاء، وكل أصدقائي وزملائي، على تشجيعهم ومساندتهم.

وفي الأخير، أسأل الله أن يوفق الجميع، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

** إهداء **

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبهديه تكتمل الخطى . . . أهدي ثمرة جهدي هذا:

إلى منبع الحب والحنان، إلى القلب الذي لم يعرف يوماً إلا العطاء،

إلى من سهرت الليالي من أجلي، ودعت لي في كل حين دون كلل أو ملل . . .

إلى أمي الحبيبة، يا سر قوتي وسبب نجاحي، يا من لولا دعواتك لما وصلت،

أسأل الله أن يطيل في عمرك ويجزيك عني خير الجزاء .

إلى من علمني أن للحلم طريقاً، وأن النجاح يحتاج صبراً وثباتاً،

إلى من كان ظلي حين اشتد الحر، وسندي حين مالت الأيام . . .

إلى أبي الغالي، يا من غرست في الأمل والثقة،

أهديك هذا الإنجاز اعترافاً بفضلك الذي لا يُقدر بثمن، حفظك الله ورعاك .

إلى نصف قلبي، ورفيق دربي، ومن شاركني كل تفاصيل هذا الطريق بحب وصدق . . .

إلى زوجي سفيان، يا من كنت لي النور في لحظات العتمة،

والقوة في لحظات الضعف، والسند الذي لا يميل،

بحبك صار التعب هيناً، وبقربك صار الحلم قريباً . . .

لك مني كل الحب والامتنان، فأنت أجمل ما في هذا الإنجاز .

إلى إخوتي، نبض الفرح في حياتي، وسندي الذي أعتز به دائماً،

شكراً لوجودكم إلى جانبي في كل خطوة . . .

إلى إخوتي الأعزاء، دمتم لي قوة وفخراً .

إلى عائلتي الثانية، الذين غمروني بالمحبة والتقدير، وكانوا لي سنداً ودعماً . . .

إلى أهل زوجي الكرام، شكراً لكم على طيب قلوبكم ووقوفكم إلى جانبي،

أسأل الله أن يديم المحبة بيننا ويجزيكم عني كل خير .

مقدمة

مقدمة:

يعد الأدب من أهم الوسائل التعبيرية التي استطاع الإنسان من خلالها أن ينقل مختلف قضـــاياه الفكرية والاجتماعية والسياسية، وأن يعكس طبيعة علاقته بالعالم المحيط به. ومع تطور الحياة الإنسانية وتعقدها، لم يعد الأدب مقتصرا على تصوير المشـــاعر والأحاسيس فقط، بل أصبح مجالا للكشف عن الأزمات والتحولات التي يعيشـــها الإنسان في واقعه المعاصر، ومن بين القضايا التي فرضت حضورها بقوة في الساحة الفكرية والأدبية، تبرز القضية البيئية باعتبارها من أبرز الإشكالات التي تشـــغل العالم اليوم، خاصـــة في ظل ما شـــهده العصر الحديث من تطور صناعي وتكنولوجي هائل أدى إلى الإخلال بالتوازن الطبيعي وظهور أشـــكال متعددة من التلوث والاستغلال المفرط للطبيعة.

وقد ساهم هذا التحول في ظهور اتجاهات نقدية حديثة، من بينها النقد البيئي الذي يهتم بدراســـة العلاقة بين الأدب والبيئة، والكشف عن الكيفية التي تمثل بها النصوص الأدبية الطبيعة وقضاياها المختلفة، حيث أصبح الأدب فضاء للتعبير عن المخـــاوف البيئية والتنبيه إلى خطورة التعدي على الطبيعة وما ينجر عنه من آثار تمس الإنسان والمكان معا، ومن هذا المنطلق، اكتسبت الدراسات البيئية في الأدب أهمية كبيرة، لأنها تســـهم في إبراز الوعي البيئي داخل النصوص الأدبية وتحليل أبعادها الفكرية والجمالية.

وتبرز رواية مدن الملح باعتبارها من أهم الروايات العربية التي استطاعت أن تجســـد التحولات البيئية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة العربية بعد اكتشاف النفط، حيث صـــور الكاتب من خلالها التحول الذي عرفته البيئة الصـــحراوية من فضـــاء طبيعي بسيط ومتوازن إلى فضاء مادي تهيمن عليه الآلات ومظاهر التلوث

والاســـتغلال، كما كشـــفت الرواية عن أثر هذه التحولات على الإنسان، سواء من الناحية النفسية أو الاجتماعية أو الثقافية، الأمر الذي جعلها نصا غنيا بالدلالات البيئية والرمزية.

وتكمن أهمية هذا الموضـــوع في كونه يســـلط الضـــوء على جانب مهم من جوانب الرواية العربية المعاصـــرة، والمتمثل في الخطاب البيئي، كما يبرز دور الأدب في معالجة القضايا الإنسانية والكونية، ويكشف عن قدرة الرواية على تصوير التحولات التي تصـــيب الإنسان والطبيعة في ظل التطور الصناعي والاقتصادي، إضـــافة إلى ذلك، فإن دراســـة الخطاب البيئي في الرواية تســـهم في توسيع مجال الدراسات النقدية الحديثة وربط الأدب بالقضايا الواقعية المعاصرة.

وانطلاقا من ذلك، تتمثل إشكالية هذا البحث في التساؤل الآتي:

كيف تجلى الخطـــاب البيئي في روايـــة "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف؟ وما أبرز القضايا البيئية التي عالجتها الرواية؟

وتنبثق عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية، من بينها:

- كيف صور الكاتب البيئة الصحراوية قبل اكتشاف النفط؟
- كيف تحولت بعد ظهور البترول؟ وما أبرز مظاهر التلوث البيئي التي عرضتها الرواية؟
- كيف انعكست هذه التحولات على الإنسان وعلاقته بالمكان؟ وما الرموز الطبيعية التي اعتمدها الكاتب للتعبير عن اختلال التوازن البيئي؟

ومن خلال هذه الإشكالية، انطلقت الدراسة من مجموعة من الفرضيات، لعل أبرزها أن الرواية قدمت النفط بوصـــفه رمزا للتلوث والجشع الإنساني، كما كشفت

عن التحولات العميقة التي مست البيئة الصحراوية والإنسان معا، إضافة إلى اعتماد الكاتب على مجموعة من الرموز الطبيعية والتقنيات السـردية لتشكيل خطاب بيئي يحمل أبعادا نقدية وثقافية.

وقد تعددت دوافع اختيارنا لهذا الموضـوع، ومن أهمها الرغبة في دراسـة القضايا البيئية في الأدب العربي، ومحاولة الكشف عن حضور البيئة داخل الرواية العربية المعاصرة، إضافة إلى أهمية رواية "مدن الملح" باعتبارها من الأعمال الأدبية التي ناقشت التحولات الكبرى التي عرفها المجتمع العربي بعد اكتشاف النفط، فضلا عن الرغبة في توظيف المناهج النقدية الحديثة في تحليل النصوص الأدبية.

أما فيما يتعلق بالدراسات السابقة، فقد حظيت رواية "مدن الملح" باهتمام العديد من الباحثين والنقاد، حيث تناولتها عدة دراسـات من زوايا مختلفة؛ فركزت بعض الدراسات على البعد الاجتماعي والسياسي للرواية، من خلال تحليل التحولات التي مست المجتمع الصحراوي بعد اكتشاف النفط، بينما اهتمت دراسات أخرى بالجانب الرمزي في الرواية، خاصة ما يتعلق بالفضاء الصحراوي والواحة والماء والنخيل بوصـفهـا رموزا دالة على التوازن الطبيعي والحياة، كما اهتمت بعض الأبحاث بدراسة مظاهر التلوث والتغير البيئي داخل الرواية، إلا أن أغلب هذه الدراسات لم تتناول الخطاب البيئي باعتباره نسـقا ثقافيا متكاملا يجمع بين البعد البيئي والبعد السردي، وهو ما يسعى هذا البحث إلى معالجته والكشف عنه.

وللإجابة عن هذه الإشكالية، اعتمدنا خطة بحث تضمنت مقدمة وتمهيدا نظريا وفصولا تطبيقية وخاتمة، حيث تناولنا في **التمهيد** مفهوم الأدب البيئي وأهميته في النقد الثقافي، مع الإشـارة إلى أهم الدراسات والكتابات التي اهتمت بالموضوع، ثم قدمنا ملخصا لرواية "مدن الملح"، بعد ذلك، خصصنا الفصل الأول لدراسة العنوان

وإحالته على قضـــايا البيئة من خلال مقاربة سيميائية لعتبات الرواية، أما المحور الثاني فقد تناول وصـــف البيئة قبل اكتشـــاف النفط، من خلال إبراز ملامح الحياة الطبيعية في الصحراء والواحة وعلاقة الإنسان بها، وفي المحور الثالث، درسنا ثيمة البترول وصدمة البيئة في الرواية، مع تتبع مظاهر التلوث البيئي كالتلوث البصري والســـمعي، ورمزية الآلات، وتغير معالم الطبيعة واختفاء الواحات، بينما خصص المحور الرابع لدراسة تجليات العلاقة بين الإنسان والبيئة في الرواية، وكيف جسدت الشخصيات الروائية حجم الاختلال البيئي والثقافي الذي أحدثته شركات النفط، مع التطرق إلى بعض الشـــخصـــيات مثل شخصية متعب الهذال وابن رشيد والجماعة والمجتمع، أما المحور الخامس، فقد تناول التقنيات السردية وأثرها في تشكيل خطاب البيئـــة، من خلال تحليـــل الرموز الطبيعية وتحولاتها الثقافية مثل البحر والنخيل والواحة والصحراء والماء، لنصل في الأخير إلى عرض نتائج البحث والخاتمة.

وقد اعتمدنا في هذه الدراســـة على المنهج الوصـــفي التحليلي، باعتباره من أنســـب المناهج لدراسة النصوص الأدبية وتحليل أبعادها الفكرية والجمالية، حيث مكننا هذا المنهج من تتبع مظاهر الخطاب البيئي داخل الرواية والكشف عن دلالاته المختلفة.

وكغيره من البحوث الأكـــاديمية، لم يخل هذا العمل من بعض الصـــعوبات والعراقيل التي واجهتنا أثناء إنجازه، ولعل أبرزها قلة الدراسات العربية المتخصصة في مجال الخطاب البيئي، وحداثة النقد البيئي مقارنة بالمناهج النقدية الأخرى، إضافة إلى تشـــعب الموضوع وتداخل أبعاده الفكرية والثقافية والسردية، مما تطلب جهدا كبيرا في جمع المادة العلمية وتحليلها، كما واجهتنا صـــعوبة في الربط بين الجانب النظري والتطبيقي، وفي تتبع الرموز البيئية ودلالاتها داخل الرواية، فضلا عن تعدد

التأويلات الممكنة للنص الروائي وغزارة أحداثه وتشـــعب شـــخصياته، ورغم هذه الصعوبات، فقد حاولنا قدر الإمكان الإحاطة بمختلف جوانب الموضوع وتقديم دراسة تسهم في الكشف عن أبعاد الخطاب البيئي في الرواية العربية المعاصرة.

أما فيما يتعلق بالمصادر والمراجع المعتمدة في هذه الدراسة: فقد اعتمدنا على مجموعة من المصـــادر الأســـاسية والمراجع النقدية التي خدمت موضوع البحث وأســـهمت في الإحاطة بجوانبه النظرية والتطبيقية، ويأتي في مقدمتها رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف بأجزائها الخمســـة كأثر أساسي للدراسة، إضافة إلى عدد من الكتب النقدية والدراســـات التي تناولت الرواية وأبعادها الفكرية والاجتماعية والبيئيـــة، وكذلك المراجع الخاصـــة بالنقد البيئي المتعلقة بالمناهج النقدية الحديثة ومراجع النقد السردي والسيميائي.

المدخل

مفهوم الأدب البيئي وخصائصه

أولا: الأدب البيئي المفاهيم والبدايات

في كتابه الصادر عام 1972، *The Comedy of Survival: Studies in Literary Ecology*، وضع جوزيف ميكر (Joseph Meeker) اللبنات الأولى لما يعرف بـــ«الإيكولوجيا الأدبية» والذي ربط فيه بين النص الأدبي والحس البيئي، من خلال نظرة نقدية للأشكال الأدبية ومدى تعبيرها عن علاقة الإنسان بالطبيعة واستعداده للبقاء ضمن النظم البيئية.

وبعد سنوات قليلة وتحديدا سنة 1978، استحدث ويليام روكيرت (William Rueckert) مصطلح النقد البيئي، في مقالته "Literature and Ecology: An Experiment in Ecocriticism" التي نشرت لأول مرة في المجلة الأدبية المرموقة *The Iowa Review*، حلل فيها نصوصا لأدباء تناولوا البيئة والطبيعة بصورة نقدية متميزة، وعلى إثر هذه الدراسة انطلق الاهتمام بالأدب البيئي مطلع ثمانينات القرن الماضي، متأثرا بتطور الدراسات البيئية والمفاهيم الإيكولوجية، وتجدر الإشارة إلى أن هذا المجال لا يزال في مراحله التأسيسية الأولى، خاصة في المشهد العربي؛ إذ لم يظهر لدينا حتى اليوم سوى عدد محدود من الدراسات المنهجية التي أسست لهذا التخصص، رغم توفر أعمال أدبية عربية وظفت في هذه الدراسات، ما يشير إلى حاجة ملحة لتوسيع النشاط الأكاديمي في هذا الميدان المتجدد[1].

يمثل الأدب البيئي أو أدب البيئة إذن؛ تيارا أدبيا حديثا يركز على تصوير علاقة الإنسان بالعالم الطبيعي في المتن الإبداعي، وقد برز هذا المصطلح ضمن تطور نقدي أوسع يعرف بـــ النقد البيئي (Ecocriticism) وهو مجال نقدي يفحص تمثيلات البيئة والمنظومة الطبيعية في الأعمال الأدبية، إلا أن هذا التيار لم يترسخ كمجال مستقل إلا في أوائل التسعينيات من القرن الفائت، إذ شهدت هذه الفترة في الولايات المتحدة الأمريكية الانطلاقة

[1]– موحوش خيرة، الترجمة والأدب البيئي: مقاربة نظرية وتطبيقية في سياق الرواية، مجلـــة في الترجمة/ In Translation، المجلد 12، العدد 1، ديسمبر 2025، ص 265.

الفعلية للنقد البيئي كمجال أكاديمي منظم وذلك بالتوازي مع تنامي الاهتمام العام بالأزمة البيئية عالميا[1].

في تلك المرحلة التأسيسية، صدرت أعمال هامة بلورت مفهومي الأدب والنقد البيئيين، ففي مقدمة كتابها "قارئ النقد البيئي" عرفت الباحثة شيريل جلوتفلي (Cheryll Glotfelty) النقد البيئي بأنه دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة الفيزيائية، وأنه يضع قدما في الأدب وقدما في علم البيئة، ويسعى لرصد التقاطعات بين النصوص الثقافية والعالم الطبيعي[2].

أما الباحث لورانس بوويل (Lawrence Buell) فقد قام بوضع معايير للعمل الأدبي الأيكولوجي في كتابه "الخيال البيئي"، إذ رأى أن النص الأدبي لا يكون نصا بيئيا إلا إذا توافرت فيه بعض الخصائص؛ كحضور البيئة غير البشرية حضورا فعالا وبشكل أكثر من مجرد خلفية سردية، وبوصفها عملية ديناميكية لا مجرد معطى ثابت، وأن يتضمن النص منظورا أخلاقيا يدرك مسؤولية الإنسان تجاه البيئة، وقد شكلت المعايير التي اقترحها لورنس بويل إطارا مرجعيا نقديا يحتكم إليه في تمييز الأدب البيئي عن غيره من الأجناس الإبداعية الأخرى، وأسهمت في بلورة خصائص هذا الأدب وتحديد ملامحه المفهومية والمنهجية[3].

ويمكننا القول أن الأدب الأيكولوجي ينطوي على نقد جذري للنزعة الإنسانية المركزية(Anthropocentrism) ، التي تكرس استعلاء الإنسان وتفصله عن بقية الكائنات الحية، باعتباره الكائن الأسمى والمهيمن ضمن النظام الكوني، متجاهلة بذلك الترابط البنيوي بينه وبين بيئته، وقد حفزت هذه الرؤية الجديدة للأدب؛ اهتماما متزايدا بدراسة أعمال أدبية سابقة ولاحقة من منظور بيئي.

---

[1]– موحوش خيرة، المرجع السابق، ص 265.

[2]– Kovářová, K. What else can nature mean: An ecocritical perspective on cormac McCarthy's fiction. Theory and Practice in English Studies, 2019, P 43.

[3]– Buell, L. The environmental imagination: Thoreau, nature writing, and the formation of American culture. Belknap Press of Harvard University Press, 1995, P 02.

ثانيا: تطور الأدب البيئي وأبرز أعلامه

أسهم هذا التصور الجديد في الدفع بتطور الأدب البيئي بصورة لافتة منذ أواخر القرن العشرين، حيث برزت على الساحة الأدبية العالمية أعمالا نوعية اتخذت من البيئة محورا جوهريا لتجربتها الإبداعية وجعلت منها منطلقا لرؤى جمالية وفكرية متجددة، غير أن هذا الحقل الأدبي لم يخل من محاولات باكرة مهدت لظهوره، من أبرزها رواية Henry David Thoreauهنري ديفيد ثورو Walden سنة 1854، التي تعد من أوائل النصوص التي احتفت بالحياة في كنف الطبيعة، ودعت إلى تبني نمط عيش بسيط ومنسجم مع المحيط الطبيعي، وعلى الرغم من سَبْقِه لعصر نشوء النقد البيئي بقرن ونصف، غالبا ما يستدعى ثورو بوصفه رائدا فكريا لهذا التيار الأدبي، نظرا لرؤيته الاستشرافية عن الطبيعة والبيئة، أما في القرن العشرين أصدرت راشيل كارسون (Rachel Carson) كتابها "الربيع الصامت Silent Spring سنة 1962، والذي دقت من خلاله ناقوس الخطر تجاه التلوث البيئي وأثر المبيدات على النظام الحيوي، ويعتبر هذا الكتاب علامة فارقة في الأدب الأيكولوجي؛ لدمجه بين الأسلوب الأدبي والطرح العلمي، كما ألهم حركات حماية البيئة حول العالم، وخلف أثرا بالغا في إعادة تشكيل النظرة الإنسانية إلى العالم الطبيعي، من خلال كشفه عن الأبعاد الخفية للعلاقة بين الإنسان والبيئة[1].

ومن الروائيين المعاصرين الذين عالجوا ثيمات بيئية نذكر باربرا كينجسولفر (Barbara Kingsolver) في روايتها "سلوك الفراشة (Flight Behavior) "والتي تناولت إشكاليات التغير المناخي من خلال تتبع مسار امرأة شابة تقطن مزرعة ريفية وتكابد أزمات اقتصادية ومعيشية حادة، ما يجعل من تجربتها مرآة لانعكاسات الأزمة البيئية على الفئات الهشة في المجتمع، وقد صنفتها صحيفة نيويورك تايمز ضمن قائمة الروايات الأعلى مبيعا، كما رشحت لنيل لقب "أفضل كتاب في العام".

[1]– موحوش خيرة، المرجع السابق، ص 266.

وعرِف الروائي ريتشارد باورز (Richard Powers) بروايته الشهيرة سنة 2018 (The Overstory ظلة الغاب)، هي عمل روائي بيئي حائز على جائزة بوليتزر للرواية عام 2019، ويدور حول الدفاع عن الغابات ومقاومة تدمير الطبيعة.

كما أسهم بعض الشعراء في إثراء الأدب البيئي، مثل الشاعر الأميركي غاري سنايدر (Gary Snyder) الذي تستلهم قصائده الطبيعة والفلسفات البيئية، ويعد سنايدر من أبرز الأصوات الأدبية التي ربطت بين التجربة الشعرية والتأمل البيئي العميق، حيث تجسد قصائده رؤية كونية تعلي من شأن الطبيعة، وتتفاعل معها لا بوصفها موضوعا شعريا فحسب؛ بل ككائن حي مشترك في الوجود، ولا يقف سنايدر عند حدود الوصف الجمالي للطبيعة، بل يتخذ من الشعر منبرا لمساءلة علاقة الإنسان بالعالم من حوله، منتقدا نمط الحياة الاستهلاكية، فشعره يتجاوز كونه تعبيرا ذاتيا ليغدو شكلا من أشكال "البيو-شعرية(bio-poetics)" حيث تتداخل الأبعاد البيئية والروحية والثقافية في نسيج لغوي شديد الكثافة والشفافية في آن معا[1].

أما الكاتب الأمريكي كيم ستانلي روبنسون (Kim Stanley Robinson) فيعد من أبرز رواد الخيال العلمي البيئي climate fiction أو cli-fi في القرن الحادي والعشرين، وهو ليس فقط روائي خيال علمي، بل منظر بيئي أيضا تدرَس أعماله في مجالات الأدب البيئي والخيال المستقبلي والنقد السياسي، وخبير استشرافي يعيد تخيل مستقبل الكوكب، ويعد أول كاتب كرس روايات ضخمة لتخيل مستقبل الأرض المتأثر بتغير المناخ، ويتميز بتعدد أعماله التي تجمع بين الرؤية المستقبلية والنقد البيئي والتحليل السياسي والاقتصادي، تترجم أعمال كيم القلق الإنساني الكبير حول مصير الكوكب، ويمزج فيها بين الخيال العلمي والتاريخ والبيئة واليوتوبيا، منها ثلاثية المريخ *Mars Trilogy* والتي لا تتناول فقط تقنيات الاستعمار الفضائي، بل تناقش الهندسة البيئية (terraforming)، والأنظمة السياسية البديلة

[1]– Dahal, A. The Ecological Vision of Space in Gary Snyder's Ecopoetry. Interdisciplinary Journal of Management and Social Sciences, 2(2), 2021, p 03.

والمساواة والصراعات الأخلاقية بين البشر والطبيعة، وروايته *The Ministry for the Future* الصادرة سنة 2020، وهي رواية هجينة تجمع بين الخيال العلمي والمحاكاة السياسية وعلم الاقتصاد وعلم المناخ، تدعو إلى تأسيس وزارة أممية تعنى بمكافحة تغير المناخ بعد كارثة موجات حرارة قاتلة في الهند، وتعد من أهم أعماله وأكثرها جرأة، من حيث أنها ترتكز على التفاعل العالمي الحقيقي مع أزمة المناخ، هذه الروايات وغيرها لكيم ستانلي لم تكن مجرد تحذيرات، بل أعمال تخيلية معقدة في سياسات الأرض ومصير البشرية[1].

تأخر ظهور الأدب والنقد البيئيين حتى أوائل الألفية الثالثة في السياق العربي، ويمكن القول أن العقد الأول من القرن الحالي شهد بواكير الاهتمام بالنقد البيئي، والذي اتخذ ثلاث مسارات متوازية: مسار الترجمة ومسار الدراسات التطبيقية ومسار الدراسات النظرية التعريفية، وتجدر الإشارة إلى أن الترجمة كانت نافذة مهمة للتعرف على النقد الأدبي البيئي في العالم العربي؛ إذ قدم مترجمون عرب إسهامات رائدة في نقل هذا المجال إلى العربية، ونذكر على سبيل المثال الباحث والمترجم معين رومية، الذي قام بترجمة مقال الناقد الأمريكي مايكل برانش "النقد الإيكولوجي" ونشره عام 2007 في دورية "نوافذ" السعودية، حرص رومية في مقدمة ترجمته على وضع النقد الإيكولوجي في سياقه المعرفي، بوصفه تيارا معاصرا نشأ بفعل توسع الدراسات البيئية لتشمل العلوم الإنسانية، كما سعى إلى تأصيل مفهوم "الإيكولوجيا" من خلال تتبع دلالاته وتحولاته المفهومية عبر التاريخ[2].

أصدر رومية سنة 2009 مختارات مترجمة من الشعر البيئي العالمي في مجلة "الآداب العالمية"، تضمنت قصائد مختارة للشاعر الأمريكي غاري سنايدر Gary Snyder ، من بينها قصيدة" "Prayer for the Great Family صلاة من أجل الأسرة الكبرى"،

---

[1]– موحوش خيرة، المرجع السابق، ص 267.

[2]–مايكل برانش، النقد الإيكولوجي. تر: معي رومية، مجلة نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد 36، 2007، ص27–51.

التي تتغنى بجمال الطبيعة وتعبر عن امتنان عميق لعناصرها في إطار روحاني يحتفي بالتناغم الكوني، وقد ساعدت هذه الترجمات في تحديد سمات النص الأدبي البيئي للقارئ العربي، وإبراز وعي المترجمين بطبيعة هذا الأدب.

زيادة على هذا، ظهرت ترجمات عربية لأعمال تنظيرية هامة في النقد البيئي، مثل ترجمة عزيز صبحي جابر لكتاب النقد البيئي "Ecocriticism" للناقد البريطاني Greg Garrard جريج جاريارد، تميز هذا الكتاب بتقديم نظرة شمولية عن النقد البيئي، حيث قدم تعريفا دقيقا للمجال وأكد على بعده السياسي، بوصفه نمطا تحليليا يكشف تأثيرات القوة على البيئة، كما وضع الكاتب معايير إجرائية لتمييز النصوص ذات النزعة البيئية، من خلال تحليل نماذج سردية تكشف عن التفاعل بين الإنسان والعالم الطبيعي في سياقات ثقافية وأيديولوجية متنوعة[1].

انفتح الباب واسعا أمام الأبحاث البيئية العربية، بفضل هذه الجهود الترجمية والتأليفية، وبرزت أسماء باحثين عرب نشطوا في هذا المجال، صدر عنهم كتب ومقالات تؤصل للنقد الأدبي البيئي باللغة العربية، وتطبق مناهجه على نصوص الأدب العربي القديم والحديث، فألف أبو الفضل بدران كتاب "النقد الأدبي البيئي: النظرية والتطبيق" (2010)، وجميل حمداوي "النقد البيئي أو الإيكولوجي في الأدب والفن" بالاشتراك مع حسن إعراب، وتدرج إسهامات حمداوي ضمن بواكير التنظير العربي للنقد البيئي في مقالات ومسوح حديثة تناولت نشأة الحقل ومساراته عربيا، وكتب عبد الحميد الحسامي إحدى أوائل الدراسات العربية التطبيقية في النقد البيئي بعنوان: «الضباب أتى.. الضباب رحل: قراءة من منظور بيئي» نشرت في مجلة علامات في النقد الأدبي سنة 2009 (جدة)، وهي دراسة مبكرة

[1]–جرارد جرد، النقد البيئوي Ecocriticism، ترجمة عزيز صبحي جابر، مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ضبي، 2009، ص 49.

لفتت الانتباه إلى إمكان قراءة النص العربي من منظور بيئي، وتعد مقالة مرجعية ضمن بواكير الاشتغال العربي في هذا الحقل.[1]

وبالتوازي مع ما تقدم نظمت مؤتمرات وندوات ناقشت إشكاليات البيئة في الأدب العربي، مما يدل على تنامي الاهتمام المحلي بهذه المقاربة النقدية المستجدة.

ضمن المشهد الروائي العربي الراهن، أخذت تتبلور أعمال تستلهم القلق البيئي وتعلي من حساسيته الجمالية والفكرية على نحوٍ صريح، على سبيل المثال رواية «حرب الكلب الثانية» للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله، الحائزة على الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام 2018، والتي تمثل نموذجا دالا على هذا المنحى؛ ببنيتها الخطابية التحذيرية إذ ترسم مستقبلا ديستوبيا للبيئة والمناخ، وقد استقطبت قراءات إيكولوجية أعادت تأويلها في أفق الأخلاق البيئية وبينت أدواتها الأسلوبية في بناء خطاب التحذير من انهيار المنظومات الطبيعية.

وعلى ذات المنوال، قدمت الروائية لطيفة الدليمي في روايتها «حديقة حياة» مادة سردية قابلة لقراءة بيئية نسوية تقارب علاقة المرأة بالطبيعة بوصفها شبكة مقاومة لخطاب السيطرة والاستغلال، وأما الكاتب الليبي إبراهيم الكوني؛ فيعد من أبرز من اشتغلوا على علاقة الإنسان بالصحراء في منجزه الروائي، ويظهر ذلك جليا في «نزيف الحجر» وهي من أهم أعمال السرد البيئي العربي، حيث تتداخل الأسطورة والميتافيزيقا مع تمثيلات روحانية لناسك من الطوارق، يرتبط بعلاقة روحية مع حيوان الوَدان (الكبش البري) ثم يصطدم بصيادين فتتبدى له مفارقة القيم، اقتصاد النهب مقابل أخلاقيات الرعاية، ينتهي الصراع بمأساة تفصح عن الثمن الباهظ الذي تكلفه حماية الكائنات والفضاء الطبيعي، إن هذه الأمثلة مجتمعة تشير إلى تنامي الأدب البيئي العربي كحقل إبداعي آخذٍ في التشكل، مدعوما بجهود نقدية وترجمية لإثراء الخطاب البيئي في الثقافة العربية المعاصرة[2].

---

[1]– موحوش خيرة، المرجع السابق، ص 268.

[2]– المرجع نفسه، ص 268.

ثالثا: الخصائص الأدبية للأدب البيئي

تنهض فرادة الأدب البيئي على منظومة من السمات الشكلية والثيمية، تمنحه هوية خاصة ضمن الأجناس الأدبية الأخرى من حيث أنه يسعى إلى زحزحة المركزية البشرية عبر إسناد تفويض سردي للطبيعة؛ فلا تعامل بوصفها ديكورا ثابتا بل كيانا فاعلا يشارك في إنتاج المعنى ودفع الحبكة، ويتجلى ذلك في تقنياتٍ سردية كتعدد البؤر والالتفات إلى منظور غير بشري، أو عبر التشخيص والتجسيد اللغوي للكائنات والعناصر الطبيعية[1].

بهذا ينفتح النص الإيكولوجي على أفقٍ معرفي يساكن فيه الإنسان الكائنات الأخرى بدل التحدث باسمها، ويعيد موازنة المصالح بين ما هو بشري وغير بشري وتترافق هذه الرؤية مع نزعةٍ نقدية واضحة تراجع أنماط الاستهلاك، وتعري كلف التغير المناخي وفقدان التنوع الحيوي، مؤكدة مسؤولية الإنسان الأخلاقية تجاه النظم الإيكولوجية وضرورات العدالة البيئية في التمثيل والسلوك[2].

أما أسلوبيا ودلاليا؛ يستثمر الأدب البيئي لغة حسية دقيقة تكثف تفاصيل المكان والمناخ والأصوات والروائح، وتستعير صورها من المعجم الطبيعي لتصوغ معرفة بالحواس، كما يوازن بين واقعيةٍ وصفية صارمة وبعدٍ روحاني أسطوري يمنح الطبيعة قيمة تتجاوز النفعية، فتغدو فضاء للتأمل والذاكرة والقداسة الثقافية، ويقدمها بوصفها سيرورة دينامية لا تختزل في ثابتٍ جغرافي، كدورات الفصول والهجرة والنمو بل تعيد شبك زمن البشر بزمن البيئة، وتذكر بأن التغير قانونٌ كلي لا استثناء فيه، وبهذا تتكون فرادة الأدب البيئي من تداخلٍ عضوي بين أخلاقيات العلاقة بالطبيعة وآليات تمثيلها سردا ولغة، سواء أكان النص رواية أم قصيدة أم كتابة رحلية أو مقالة تأملية[3].

---

[1]– موحوش خيرة، المرجع السابق، ص 269.

[2]–Buell, L. Harvard University Press, 1996, P 7–8.

[3]– Ibid , P 8.

باختصار يزاوج الأدب البيئي بين جماليات تمثيل الطبيعة ولغتها الحسية، وبين موقفٍ معرفي أخلاقي يعيد مساءلة علاقة الإنسان ببيئته؛ وهو في جوهره دعوةٌ ضمنية إلى مراجعة موقع القارئ داخل النسق الإيكولوجي، وتبني رؤيةٍ تشاركية إزاء الكائنات والأمكنة من حوله، وقد أسهم هذا التداخل بين البلاغة الطبيعية والوعي البيئي في ترسيخ النقد البيئي كمنهج تحليلي قادر على كشف هذه الأبعاد واستجلاء تمثلاتها النصية، وهو ما سنفصله في القسم التالي.

الفصل الأول

العنوان وإحالاته على قضايا البيئة: دراسة سيميائية في عتبات رواية "مدن الملح"

تعد رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف واحدة من أبرز الأعمال الروائية العربية التي تناولت التحولات الكبرى في المجتمعات الخليجية بعد اكتشاف النفط[1]، ولا تقتصر أهميتها على البعد التاريخي أو السياسي، بل تمتد إلى تناولها العميق للقضايا البيئية، وهو ما يتجلى بوضوح في عتبة العنوان التي تحمل دلالات سيميائية ثرية.

أولا: دلالة العنوان: "مدن الملح" بين الثبات والزوال:

يُعدّ عنوان رواية **"مدن الملح "**عتبة نصية مركزية تكشف عن البنية الدلالية العميقة للعمل قبل الولوج إلى تفاصيله السردية، إذ لا يكتفي بوظيفة التسمية، بل يتحول إلى خطاب رمزي مكثف يُحيل إلى رؤية شاملة للعالم تقوم على التوتر بين البناء والهدم، وبين الثبات والتحول، ومن منظور السيميائيات الحديثة، فإن العنوان يُعدّ مفتاحًا تأويليًا أوليًا يوجّه فعل القراءة ويؤسس أفق انتظار لدى المتلقي، كما يذهب إلى ذلك جيرار جنيت في حديثه عن "العتبات النصية" بوصفها عناصر موجهة للدلالة وليست هامشية[2].

إن تركيب العنوان من كلمتين: **مدن** والملح يخلق مفارقة دلالية حادة؛ فـــ"المدن" في المخيال الثقافي العربي والإنساني ترمز إلى الاستقرار، التمدن، التراكم الحضاري، وإلى صلابة البنية الاجتماعية والسياسية، فهي فضاء التنظيم والقانون والمؤسسات، غير أن هذه الدلالة الإيجابية للثبات تُقابلها كلمة "الملح" التي تحمل في بنيتها الرمزية معاني الذوبان والهشاشة والانمحاء، إذ إن الملح مادة قابلة للذوبان بسرعة في الماء، ما يجعلها رمزًا للزوال وعدم الاستقرار، وهنا تتولد المفارقة الأساسية التي يقوم عليها العنوان: مدن تبدو

[1]– عبد الرحمن منيف، مدن الملح: التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط11، بيروت، 2005، ص ...

[2]– جيرار جنيت، عتبات (Seuils)، ترجمة عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008، ص 88–92.

راسخة لكنها مبنية على مادة قابلة للذوبان، أي أنها تحمل داخلها أسباب فنائها منذ لحظة تشكّلها[1].

ومن زاوية نقدية ثقافية، يمكن فهم "مدن الملح" بوصفها استعارة كبرى لبنية اجتماعية وسياسية واقتصادية هشّة، حيث تبدو السلطة أو العمران أو الثروة في ظاهرها قوية ومتماسكة، لكنها في العمق تقوم على أسس غير مستقرة، سرعان ما تتعرض للتآكل بفعل الزمن أو التحولات التاريخية، وهذا ما يجعل العنوان ينفتح على قراءة تاريخية للتمدن في البيئات الصحراوية، حيث يتحول العمران إلى حالة مؤقتة مرتبطة بتقلبات الاقتصاد والطبيعة والسلطة[2].

كما يمكن قراءة "الملح" في سياق رمزي أعمق، إذ يرتبط في الثقافة العربية بالدلالة المزدوجة: فهو عنصر الحياة من جهة، لأنه ضروري للغذاء، لكنه من جهة أخرى قد يتحول إلى علامة على الخراب إذا تراكم في الأرض فأفسدها وجعلها غير صالحة للزراعة، ومن ثم فإن هذا التناقض يعزز فكرة أن المدن التي تصفها الرواية ليست مدنًا طبيعية مستقرة، بل كيانات تحمل داخلها بذور الانهيار، تمامًا كما تحمل الأرض المالحة بذور العقم رغم خصوبتها الظاهرية[3].

إن المفارقة بين "الثبات" الذي تحيل إليه "المدن" و"الزوال" الذي يرمز إليه "الملح" تجعل العنوان يقوم على بنية جدلية، حيث لا يمكن فهم أحد الطرفين دون الآخر، فالثبات هنا ليس مطلقًا، بل هو ثبات ظاهري، والزوال ليس حدثًا خارجيًا فقط، بل هو جزء من

---

[1]–حمداوي، جميل، "السيميائيات وعتبات النص الأدبي"، مجلة علامات، المغرب، العدد 17، 2003، ص 31–33

[2]–عبد الله الغذامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط2، 2005، ص 45–47

[3]–يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997، ص 118–122

البنية الداخلية للمدينة نفسها، وبذلك يتحول العنوان إلى خطاب فلسفي حول هشاشة العمران الإنساني، وإلى نقد ضمني لفكرة الديمومة التاريخية للسلطة والتمدن[1].

ومن منظور النقد البيئي، يمكن أيضًا قراءة العنوان باعتباره إحالة إلى علاقة الإنسان بالمجال الطبيعي، حيث يصبح العمران البشري مهددًا دائمًا من قبل البيئة التي يعيش فيها، خاصة في البيئات الصحراوية التي تتسم بقسوة الطبيعة وندرة الموارد، فـ"مدن الملح" ليست فقط كيانات اجتماعية، بل هي أيضًا كيانات بيئية هشّة، مرتبطة بمادة قابلة للتآكل والذوبان، مما يعكس رؤية بيئية نقدية تعتبر أن الإنسان لا يملك السيطرة المطلقة على محيطه الطبيعي[2]

وهكذا، فإن عنوان "مدن الملح" يختزل رؤية شاملة للعالم تقوم على التوتر بين البناء والهدم، وبين الاستقرار والتحول، وبين القوة والهشاشة، ليصبح بذلك مفتاحًا تأويليًا أساسياً لفهم البنية الرمزية للرواية، التي تقوم على تفكيك فكرة الثبات التاريخي للمدن والسلطات، وإبراز طابعها المؤقت والزائل.

ثانيا: إحالات العنوان على البيئة الطبيعية:

يحيل عنوان رواية **"مدن الملح"** إلى بنية دلالية ترتكز على تفاعل وثيق بين العمران البشري والبيئة الطبيعية، بحيث لا يظهر الفضاء المدني ككيان منفصل عن شروطه الجغرافية والمناخية، بل كامتداد مباشر لبيئة الصحراء وما تفرضه من قوانين القحولة والتحول وعدم الاستقرار، ومن هذا المنطلق، فإن العنوان يُنتج منذ البداية رؤية بيئية للعالم تجعل الطبيعة فاعلًا أساسيًا في تشكيل مصير المدينة وليس مجرد خلفية محايدة للأحداث.

---

[1]–بلعابد، عبد الحق، مدخل إلى عتبات النص (مقاربة جيرار جنيت)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008، ص 60–63

[2]–Glotfelty, Cheryll & Fromm, Harold (eds.), The Ecocriticism Reader, University of Georgia Press, 1996, p 120.

إن كلمة "**مدن**" تحيل إلى معنى الاستقرار والتنظيم والتراكم الحضاري، غير أن هذا الاستقرار في السياق البيئي للرواية يبدو استقرارًا هشًّا ومشروطًا، فقيام المدن في فضاء صحراوي يجعلها مرتبطة مباشرة بعناصر الطبيعة مثل الماء والتربة والمناخ، وهي عناصر غير ثابتة في هذا المجال الجغرافي، ولذلك فإن المدينة في هذا التصور لا تملك استقلالًا عن البيئة، بل تتشكل داخلها وتخضع لتحولاتها المستمرة، مما يعكس تصورًا قريبًا من الدراسات الجغرافية الثقافية التي ترى أن المكان ليس معطى ثابتًا بل بنية متحولة تتشكل عبر التفاعل بين الإنسان والبيئة[1].

أما عنصر "**الملح**" فيحمل إحالة بيئية مركبة، إذ يرتبط في المستوى الطبيعي بخصائص القحولة والتربة المالحة التي تُضعف القدرة الإنتاجية للأرض وتحدّ من استقرار العمران الزراعي، فالملح هنا ليس مادة محايدة، بل علامة على بيئة غير خصبة، حيث تصبح الأرض نفسها عنصرًا مهددًا للحياة العمرانية، كما أن تراكمه في التربة يؤدي إلى فسادها، وهو ما يمكن قراءته رمزيًا بوصفه دلالة على هشاشة البنى الاجتماعية والسياسية التي تنشأ في مثل هذه البيئات[2]

وتتعمق الإحالة البيئية عندما نأخذ بعين الاعتبار الخاصية الفيزيائية الأساسية للملح، وهي قابليته العالية للذوبان عند التفاعل مع الماء، هذا المعطى الطبيعي يتحول في العنوان إلى استعارة دلالية تُحيل إلى قابلية المدن للزوال والانمحاء، بحيث يبدو العمران وكأنه بنية

[1]–إدوارد سوجا، جغرافيا ما بعد الحداثة: إعادة بناء المكان في النظرية الاجتماعية، ترجمة: سعيد الغامدي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص 78

[2]–محمد عابد الجابري، العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية (مدخل عام للثقافة والمجال)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 132–134

مؤقتة قابلة للتفكك عند تغير الظروف البيئية المحيطة، ومن هنا فإن العنوان لا يصف مدناً مستقرة، بل يشير إلى كيانات تحمل داخلها إمكانية الانهيار منذ لحظة تشكلها[1].

كما أن العنوان يعكس علاقة جدلية بين الإنسان والبيئة الصحراوية، حيث لا يظهر الإنسان كقوة مهيمنة على الطبيعة، بل كفاعل يحاول بناء عمران داخل بيئة تفرض شروطها القاسية، فالصحراء في هذا السياق ليست مجرد فضاء جغرافي، بل نظام بيئي متكامل يحدد طبيعة العمران واستمراريته، وبالتالي فإن المدن لا تُبنى ضد الطبيعة، بل تُبنى داخلها، مما يجعلها خاضعة لقوانينها من حيث الاستمرارية والزوال[2].

ومن زاوية النقد الثقافي، يمكن فهم "مدن الملح" بوصفها تعبيرًا عن رؤية للعمران بوصفه مشروعًا تاريخيًا غير مستقر، حيث تتداخل فيه العوامل الطبيعية والاقتصادية والسياسية، فالبنية العمرانية هنا ليست نتاج إرادة بشرية مطلقة، بل نتيجة تفاعل مع بيئة قاسية تجعل كل شكل من أشكال الاستقرار عرضة للتغير، وبذلك يصبح العنوان حاملًا لرؤية نقدية للعمران الإنساني في البيئات الهامشية، حيث تتقاطع الطبيعة مع التاريخ في إنتاج الهشاشة[3]

إن هذا التداخل بين "المدن" و"الملح" يجعل العنوان يقوم على مفارقة بيئية واضحة: فبينما تشير المدن إلى البناء والدوام، يحيل الملح إلى الذوبان والتلاشي، مما يخلق توترًا دلاليًا يعكس طبيعة العلاقة بين الإنسان وبيئته، هذه المفارقة ليست لغوية فقط، بل هي مفارقة وجودية تعكس هشاشة العمران في مواجهة الطبيعة، وتجعل من العنوان مدخلًا لفهم رؤية الرواية للعالم بوصفه فضاءً متغيرًا لا يعرف الثبات المطلق.

---

[1]–عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة: دراسات في الأدب العربي القديم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص55

[2]–مصطفى ناصف، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، بيروت، 1981، ص 101

[3]–علي حرب، النص والحقيقة: نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 1993، ص 88

وبذلك يمكن القول إن إحالات العنوان على البيئة الطبيعية تكشف عن تصور بيئي نقدي يرى أن المدن ليست كيانات مستقلة، بل أنظمة متداخلة مع محيطها الطبيعي، وأن استمرارها مرهون بتوازن بيئي هش، وأن أي خلل في هذا التوازن يؤدي إلى تحولها من "مدن" إلى مجرد آثار قابلة للذوبان والزوال.

ثالثا: تحولات المكان كمؤشر بيئي

يُعدّ المكان في الرواية العربية الحديثة عنصرًا سرديًا يتجاوز وظيفته الوصفية ليصبح بنية دلالية حاملة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية، وفي رواية *مدن الملح* لعبد الرحمن منيف، يتخذ المكان بعدًا مركزيًا باعتباره فضاءً صحراويًا مفتوحًا يتحول تدريجيًا من بيئة طبيعية بسيطة إلى فضاء صناعي مأزوم بفعل اكتشاف النفط، وهو ما يجعل من "تحولات المكان" مؤشرًا مباشرًا على التحول البيئي والاجتماعي معًا.

1-المكان الطبيعي بوصفه فضاءً بيئيًا خامًا

في المراحل الأولى من الرواية، يقدم السرد الصحراء بوصفها فضاءً منسجمًا مع إيقاع الحياة التقليدية للسكان، حيث تقوم العلاقة بين الإنسان والطبيعة على التوازن والحد الأدنى من التدخل، الصحراء هنا ليست فراغًا سلبيًا، بل نظام بيئي له قوانينه الخاصة التي تحكم الماء والرياح والحركة والمعيش اليومي، هذا التوازن يعكس ما يمكن تسميته بـــ "الانسجام البيئي التقليدي" الذي يسبق تدخل الحداثة النفطية.

وقد أشار عبد الرحمن منيف في وصفه للمكان إلى أن الصحراء كانت تُفهم باعتبارها امتدادًا للحياة لا نقيضًا لها، حيث تتشكل علاقة الإنسان بالأرض من خلال الحاجة والتكيف لا من خلال السيطرة[1].

2-التحول البيئي بفعل اكتشاف النفط

[1]- عبد الرحمان منيف، مدن الملح، ص 45.

يمثل اكتشاف النفط نقطة الانعطاف الكبرى في البنية المكانية للرواية، حيث تبدأ الصحراء بالتحول من فضاء طبيعي إلى فضاء اقتصادي–سياسي خاضع للاستغلال، هذا التحول لا يقتصر على البنية العمرانية فقط، بل يمتد إلى تدمير التوازن البيئي ذاته: تجفيف آبار، تغيير مسارات الحياة البدوية، وإدخال تقنيات حديثة غريبة عن النسق الطبيعي للمكان، يتحول المكان هنا إلى "مورد" بدل أن يكون "موطناً"، وهو تحول يحمل دلالة بيئية عميقة، إذ تصبح الطبيعة مادة للاستنزاف بدل كونها منظومة حياة، ويظهر ذلك في وصف الرواية لزحف الآلات والمخيمات الأجنبية التي تعيد تشكيل الفضاء الصحراوي وفق منطق الإنتاج الصناعي[1].

3–المكان كفضاء ملوث رمزيًا وبيئيًا

لا يقتصر التحول في الرواية على الجانب الفيزيائي للمكان، بل يمتد إلى تلوث رمزي يعكس اختلال العلاقة بين الإنسان والبيئة، فظهور النفط لم يجلب فقط الثروة، بل حمل معه أيضًا التفاوت الاجتماعي، وتفكك البنى التقليدية، وظهور علاقات جديدة قائمة على الهيمنة الاقتصادية.

يمكن فهم هذا التحول ضمن ما يسميه النقد البيئي بـــ "تسييس البيئة"، حيث يصبح التغير البيئي مرتبطًا مباشرة بالبنية السلطوية والاقتصادية، وقد أكد عبد الله الغذامي في سياق النقد الثقافي أن تحول الفضاءات ليس بريئًا، بل يعكس أنساق القوة المهيمنة داخل المجتمع[2].

4–تفكك المكان التقليدي وبروز المدينة النفطية

مع تقدم السرد، تتحول الصحراء إلى مدن نفطية ناشئة، لكنها مدن بلا جذور بيئية حقيقية، إذ تقوم على الاستيراد والتخطيط الخارجي لا على التراكم الطبيعي، هذا التحول

[1]– المصدر نفسه، ص 110.

[2]– عبد الله الغذامي، المرجع السابق، ص 67–72.

يعكس قطيعة بيئية كاملة، حيث يتم استبدال النظام البيئي الصحراوي بنظام عمراني صناعي سريع النمو، لكنه هش من حيث الاستدامة، وتشير الرواية إلى أن هذه المدن الجديدة لا تنتمي إلى المكان بقدر ما تُفرض عليه، مما يؤدي إلى اغتراب الإنسان عن بيئته الأصلية[1].

5-دلالة التحول البيئي في البنية السردية

إن تحولات المكان في *مدن الملح* لا يمكن قراءتها بوصفها تغييرات جغرافية فقط، بل هي تحولات أنثروبولوجية وبيئية تعكس انتقال المجتمع من نمط عيش تقليدي متوازن بيئيًا إلى نمط حداثي استهلاكي قائم على استنزاف الموارد، وبذلك يصبح المكان مرآة للانفصال بين الإنسان وبيئته، وهو ما يجعل الرواية نموذجًا مبكرًا لما يمكن تسميته اليوم بـــ "السرد البيئي النقدي" في الأدب العربي.

رابعا: البيئة المدمرة: نقد التحديث المفاجئ

تُقدّم رواية مدن الملح لعبد الرحمن منيف تصورًا نقديًا حادًا للتحوّل السريع الذي أصاب البيئة الصحراوية بعد اكتشاف النفط، حيث لا يظهر التحديث بوصفه تطورًا تدريجيًا طبيعيًا، بل كاقتحام مفاجئ أعاد تشكيل المكان والإنسان معًا، وأدى إلى اختلال التوازن البيئي والاجتماعي في آن واحد[2].

1-التحديث بوصفه قطيعة بيئية: يُبرز السرد أن دخول الشركات النفطية لم يكن امتدادًا للبنية المحلية، بل قطيعة حادة معها، إذ فُرض نموذج تنموي جاهز قائم على السرعة والربح دون مراعاة خصوصية البيئة الصحراوية أو إيقاعها التاريخي، هذا ما جعل التحديث يتحول إلى قوة تفكيك بدل أن يكون عامل بناء[3].

---

[1]- عبد الرحمان منيف، مدن الملح، ص 201.

[2]-عبد الرحمن منيف، مدن الملح، ص 120.

[3]- المصدر نفسه، ص 121.

2-تدمير العناصر البيئية الطبيعية: تصف الرواية كيف أدت عمليات الحفر والتنقيب إلى تغيير ملامح الصحراء: اختفاء مسارات البدو، اضطراب الموارد المائية، وتشويه الفضاء الطبيعي بالآلات والمخيمات الصناعية، هذا التحول يعكس ما يسميه النقد البيئي بـــ"العنف التكنولوجي ضد الطبيعة"، حيث تتحول البيئة إلى مادة للاستغلال لا نظامًا حيًا متوازنًا[1].

3-تفكك العلاقة بين الإنسان والبيئة: مع تغير البيئة، يتغير الإنسان نفسه؛ إذ يفقد البدو علاقتهم التقليدية بالصحراء التي كانت تمثل مصدر هويتهم ومعيشتهم، فالمكان في الرواية ليس خلفية محايدة، بل عنصرًا مكوِّنًا للهوية، وبالتالي فإن تدميره يؤدي إلى تفكك اجتماعي وقيمي واضح[2].

4-التحديث كأداة لإعادة إنتاج الهيمنة: لا يظهر التحديث في الرواية كمشروع تنموي بريء، بل كآلية لإعادة توزيع السلطة داخل الفضاء الجديد، حيث تتحول البيئة إلى مجال اقتصادي تتحكم فيه الشركات الأجنبية، ويُعاد تشكيل المجتمع وفق منطق رأس المال والهيمنة التقنية[3].

5-دلالة البيئة المدمّرة: تؤكد الرواية أن "البيئة المدمّرة" ليست مجرد نتيجة جانبية للتطور، بل نتيجة مباشرة لغياب التخطيط البيئي المستدام، ما يؤدي إلى فقدان الهوية المكانية وتحوّل الإنسان إلى تابع داخل منظومة اقتصادية كبرى لا تعترف بخصوصية المكان[4].

خامسا: وصف البيئة قبل النفط في رواية "مدن الملح" (ثلاثية البحر، الصحراء، الواحة وحياة الإنسان)

---

[1]- المصدر نفسه، ص 132.

[2]- المصدر نفسه، ص 52.

[3]-عبد الله الغذامي، المرجع السابق، ص 67.

[4]- سعيد يقطين، المرجع السابق، ص 95.

يقدّم عبد الرحمن منيف في *مدن الملح* تصورًا تفصيليًا للبيئة العربية قبل اكتشاف النفط، حيث تُبنى الصورة السردية على ثلاثية مكانية متكاملة: البحر، الصحراء، والواحة، هذه الثلاثية لا تمثل مجرد فضاءات جغرافية، بل تشكل نظامًا بيئيًا متوازنًا كانت حياة الإنسان فيه قائمة على التكيف مع الطبيعة بدل السيطرة عليها، وعلى الاكتفاء النسبي بدل الاستهلاك المفرط[1].

1-الصحراء بوصفها فضاءً للتماهي مع الطبيعة:

تظهر الصحراء في الرواية باعتبارها الامتداد الأوسع للحياة التقليدية حيث يعيش الإنسان وفق إيقاعها القاسي والمنظم في الوقت نفسه، فهي ليست فراغا بل نظاما بيئيا له قوانينه: ندرة الماء، حركة الرمال، وتغيرات المناخ، هذا الفضاء يُنتج نمط حياة يقوم على الصبر، التنقل، والاعتماد على الموارد المحدودة، ويبرز منيف الصحراء باعتبارها "بيتًا كبيرا" للقبائل حيث لا تنفصل الهوية الإنسانية عن المكان بل تتشكل داخله وتتحرك وفق شروطه الطبيعية[2]

2-الواحة بوصفها مركز الحياة والتوازن البيئي:

تُقدّم الواحة في الرواية كنقطة توازن داخل الفضاء الصحراوي، إذ تمثل مصدر الماء والحياة والاستقرار النسبي، فهي ليست مجرد مكان زراعي، بل نظام بيئي دقيق يقوم على ترشيد الماء وتنظيم الزراعة والعلاقات الاجتماعية، كما تُجسد الواحة نموذجًا للانسجام بين الإنسان والطبيعة، حيث تتداخل فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بشكل عضوي، مما يجعلها مركزًا للحياة الجماعية التقليدية[3].

3-البحر بوصفه فضاءً للانفتاح والتبادل:

---

[1]- عبد الرحمن منيف، مدن الملح، ص 30.

[2]- المصدر نفسه، ص 40.

[3]- عبد الرحمن منيف، مدن الملح، ص 68.

يمثل البحر في الثلاثية بعدًا آخر من العلاقة البيئية، إذ يفتح المجال أمام التجارة والتواصل مع العالم الخارجي، فهو فضاء الحركة والانفتاح، حيث ترتبط المجتمعات الساحلية بأنماط معيشية قائمة على الصيد والتجارة البحرية، حيث يظهر البحر في الرواية كعنصر يوازن بين عزلة الصحراء واستقرار الواحة، مما يخلق شبكة بيئية واقتصادية مترابطة قبل دخول النفط[1].

4-الإنسان داخل النظام البيئي التقليدي

يعيش الإنسان في *مدن الملح* قبل النفط داخل منظومة بيئية متناغمة، حيث لا يسعى إلى تغيير الطبيعة بل إلى التكيف معها، فالعلاقة بين الإنسان والمكان تقوم على التفاهم لا السيطرة، وعلى الإنتاج المحدود الذي يضمن استمرار الموارد، إذ أن هذا النمط من الحياة يعكس ما يمكن تسميته بـــ"الاستدامة التقليدية"، حيث يكون الإنسان جزءًا من البيئة لا متحكمًا فيها[2].

5-دلالة الصورة البيئية قبل النفط

إن تصوير البيئة قبل النفط في الرواية ليس مجرد حنين إلى الماضي، بل هو تأسيس نقدي للمقارنة بين نظامين: نظام بيئي متوازن قائم على التكيف، ونظام حديث قائم على الاستنزاف والتدمير، ومن خلال هذه المقارنة، يبرز منيف فكرة أن التحول النفطي لم يكن تطورًا طبيعيًا، بل قطيعة جذرية مع نمط بيئي كان أكثر توازنًا واستدامة[3].

سادسا: تيمة البترول وصدمة البيئة في رواية "مدن الملح":

---

[1]- المصدر نفسه، ص 75.

[2]- سعيد يقطين، المرجع السابق، ص 88.

[3]- عبد الله الغذامي، المرجع السابق، ص 74.

تُشكّل تيمة البترول في رواية *مدن الملح* لعبد الرحمن منيف محورًا بنيويًا يكشف عن التحول الجذري الذي أصاب البيئة العربية الخليجية قبل النفط وبعده، فالبترول لا يظهر بوصفه ثروة طبيعية فحسب، بل بوصفه حدثًا صادماً أعاد تشكيل العلاقة بين الإنسان والمكان، وأحدث قطيعة عميقة مع النظام البيئي التقليدي الذي كان يقوم على التوازن بين الصحراء والواحة والبحر، ومن هذا المنظور، تتحول الرواية إلى خطاب نقدي للحداثة النفطية بوصفها حداثة غير متوازنة بيئيًا وإنسانيا.

1-التلوث البيئي بوصفه نتيجة مباشرة للاستغلال النفطي

تقدم الرواية لحظة اكتشاف النفط باعتبارها لحظة انكسار بيئي شامل، حيث لم تعد الصحراء فضاءً طبيعيًا هادئًا، بل تحولت إلى ورشة صناعية مفتوحة، يدخلها الحديد والآلات الثقيلة، وتُعاد هندستها وفق منطق اقتصادي خارجي، ويُلاحظ أن التلوث في الرواية لا يقتصر على عنصر واحد، بل يشمل الحواس كلها، مما يجعل البيئة تفقد "نقائها الإدراكي" قبل أن تفقد توازنها الطبيعي[1].

أ-التلوث البصري: تشويه جمالية المكان: يمثل التلوث البصري أحد أبرز تجليات الصدمة البيئية، حيث تتغير ملامح الصحراء بشكل كامل مع دخول شركات النفط، فبدل الامتداد الرملي الهادئ، تظهر الأبراج المعدنية، الأنابيب، الحفريات العميقة، والمخيمات الصناعية التي تغزو المكان.

ويصف منيف هذا التحول بطريقة توحي بالعنف الجغرافي: "كانت الأرض تُخترق كأنها جسد مفتوح، تُغرس فيها الآلات والحديد دون أن يُستأذن أحد"[2].

---

[1]- المصدر نفسه، ص 96.

[2]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 110.

هذا المقطع يكشف أن المكان لم يعد يُرى بوصفه فضاءً طبيعيًا، بل جسدًا قابلًا للاختراق والاستغلال، وهنا تتحول الصحراء من رمز الصفاء إلى فضاء مشوه بصريًا يعكس سلطة التقنية على الطبيعة.

ب-التلوث السمعي: انهيار الصمت الصحراوي: إذا كانت الصحراء في المخيال العربي فضاءً للصمت والسكينة، فإن الرواية تُظهر كيف أن هذا الصمت ينكسر تدريجيًا مع دخول الآلات، فالضجيج المستمر للحفر والمضخات والصناعات الثقيلة يخلق بيئة صوتية جديدة بالكامل.

حيث يقول السارد في المقطع التالي: "لم تعد الصحراء صامتة كما كانت، فقد امتلأت الأرض بأصوات لا تنتهي، كأنها تعلن عن شيء لا يريد أن يتوقف"[1]، أي أنن هذا التحول ليس مجرد تغيير في الإيقاع الصوتي، بل هو انهيار لنظام بيئي قائم على الهدوء والتوازن، ودخول عالم صناعي لا يعترف بالسكينة الطبيعية.

2-رمزية الآلات: من التقدم إلى الهيمنة:

تحتل الآلة في *مدن الملح* مكانة رمزية مركزية، إذ تتحول من كونها أداة للتقدم إلى علامة على السيطرة والهيمنة، فبمجرد دخولها إلى الفضاء الصحراوي، تبدأ بإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والطبيعة، حيث يصبح الإنسان جزءًا من منظومة إنتاجية لا يتحكم فيها، ويصف السرد حركة الآلات بشكل يوحي بأنها كائن مستقل، يقول السارد: "كانت الآلات تعمل بلا توقف، كأنها تبتلع الأرض وتعيد تشكيلها وفق رغبتها الخاصة"[2].

هذا التصوير يجعل الآلة قوة ذاتية الفعل، وليست مجرد أداة، وهو ما يعكس تحول الحداثة التقنية إلى قوة مهيمنة تعيد إنتاج المكان وفق منطقها الخاص.

---

[1]- المصدر نفسه، ص 98.

[2]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 123.

وبذلك تتحول الآلة إلى رمز مزدوج: أولهما رمز للتقدم الظاهري وثانيهما ورمز للاغتراب البيئي والإنساني.

3-تغيير معالم الطبيعة: إعادة هندسة الجغرافيا

يُعدّ تغيير الجغرافيا من أخطر آثار النفط في الرواية، إذ لم تعد الأرض كما هي، بل أعيد تشكيلها بالكامل، فالطرق الجديدة شقت الصحراء، والمناطق الصناعية حلت محل الفضاءات الطبيعية، والخرائط التقليدية فقدت معناها، وفي هذا يقول السارد: "امتدت الطرق في كل اتجاه، وكأن الصحراء تُعاد كتابتها من جديد دون أن يُسأل أهلها"[1].

هذا المقطع يكشف أن الجغرافيا لم تعد ملكًا للمكان أو لسكانه، بل أصبحت مشروعًا اقتصاديًا يُدار من الخارج، وهكذا يتحول الفضاء الطبيعي إلى فضاء مُصنّع، وتختفي الحدود بين الطبيعي والمصطنع.

4-اختفاء الواحات وموت النخيل: انهيار الذاكرة البيئية:

تمثل الواحات والنخيل في الرواية ذاكرة المكان وروحه البيئية، فهي ليست مجرد عناصر طبيعية، بل مراكز حياة واستقرار، لكن مع صعود النفط، تبدأ هذه الرموز في التراجع التدريجي، حيث نجد السارد يقول: "بدأ النخيل يذبل شيئًا فشيئًا، وكأن شيئًا في الأرض نفسها قد توقف عن العطاء"[2].

إن موت النخيل هنا ليس ظاهرة طبيعية، بل علامة رمزية على:

-انهيار النظام البيئي التقليدي

-تراجع الزراعة لصالح النفط

- فقدان الهوية المكانية

[1]- المصدر نفسه، ص 155.

[2]- المصدر نفسه، ص 175.

كما أن اختفاء الواحات يؤدي إلى تفكك البنية الاجتماعية التقليدية، حيث ينتقل السكان نحو المدن النفطية، وتفقد المجتمعات الصغيرة توازنها التاريخي.

5-الدلالة العامة لصدمة البترول

تكشف الرواية أن النفط ليس مجرد ثروة اقتصادية، بل حدث صادم أعاد تشكيل كل مستويات الحياة، فهو غيّر شكل البيئة ودمّر التوازن الطبيعي كما فرض منطق الصناعة على الطبيعة وبذلك أعاد تشكيل المجتمع والسلطة، ومن ثم يصبح البترول رمزًا لما يمكن تسميته بـــ **"الحداثة غير المتوازنة"**، أي الحداثة التي تنتج التقدم المادي لكنها تُفكك الأسس البيئية والإنسانية التي يقوم عليها المجتمع[1].

وهكذا، يقدم منيف رؤية نقدية عميقة تؤكد أن التطور إذا لم يحترم البيئة، فإنه يؤدي إلى انفصال الإنسان عن جذوره الطبيعية واغترابه داخل عالمه الجديد.

[1]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 74.

الفصل الثاني

الأنساق الثقافية والتقنيات السردية للخطاب البيئي

أولا: الشخصيات الروائية باعتبارها ضميرا للبيئة

يشكل الإنسان في رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف محور الوجود الروائي، غير أنه ليس إنسانا مجردا أو محايدا، بل إنسانا عضويا متصلا بالتراب والماء والهواء، إنسانا لا تنفصل هويته عن بيئته، وعندما تأتي شركات النفط لتهدم تلك البيئة، ينهار الإنسان معها، أو يصاب بالمرض، أو يفقد ذاكرته، أو يتحول إلى كائن غريب عن أرضه، من هنا، يمكن القول إن الشخصيات الروائية في "مدن الملح" ليست مجرد أسماء تحركها الأحداث، بل هي "ضمير البيئة" الناطق باسم الطبيعة المدنسة، وهي تجسيد حي للثقافة البيئية التي كانت قائمة قبل الطفرة النفطية، وللصدمة التي أعقبتها[1].

وستتناول في هذا المحور خمسة نماذج رئيسية لتجليات الإنسان والبيئة، مع تحليل كل نموذج على حدة، ثم الخروج بخلاصة تركيبية تبين كيف حول منيف القضية البيئية إلى نسق ثقافي إنساني مقاوم.

1-شخصية "مطر" (أبو صالح): الإنسان الفطري وحارس النخيل:

يمثل "مطر" أصدق نموذج للعلاقة العضوية بين الإنسان والطبيعة قبل مجيء النفط، هو فلاح بسيط لم يغادر واحته قط، لكنه يمتلك معرفة عميقة بكل شبر من الأرض التي يعيش فيها، يصوره منيف في مشاهد متفرقة وهو:

- يتحدث إلى النخلة قبل أن يلمسها، كأنها إنسان يفهم الكلام.
- يبكي حين تموت نخلة عجوز، وكأنه فقد ابنا أو أخا.
- يرفض قطع شجرة إلا لضرورة قصوى، وإذا قطعها يزرع مكانها أخرى.
- يعرف أسماء كل نخلة في بستانه، ويعرف تاريخ كل واحدة منها[2].

[1]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 15-20.

[2]- المصدر نفسه، ص 44-49.

هذا السلوك ليس مجرد عاطفة، بل هو تعبير عن نسق ثقافي بيئي كامل، قوامه الأفكار التالية:

العنصر الثقافي تجليه في شخصية مطر

- **قداسة الطبيعة** :النخلة ككائن مقدس لا يعتدى عليه.
- **الاستدامة** :الأخذ من الأرض مع العطاء لها.
- **المعرفة المحلية** :معرفة تفصيلية بالتربة والماء والمناخ.
- **الزمن الدائري** :حياة مرتبطة بمواسم الزراعة لا بسرعة الآلة.

في النقد الثقافي البيئي، يعتبر هذا النموذج مثالا على "الإنسان البيئي قبل الحداثي " (pre-modern ecological man).وهو نموذج كان سائدا في المجتمعات التقليدية، حيث لم تكن هناك فجوة بين الذات البشرية والعالم الطبيعي[1]، لكن هذه العلاقة تتعرض لصدمة عنيفة عند وصول شركات النفط، حيث يجد مطر نفسه عاجزا عن حماية نخيله، ويرى بأم عينيه كيف تموت شجرة تلو الأخرى دون أن يفهم السبب، في أحد المشاهد المفصلية، يقف مطر أمام نخلة تتحول أوراقها إلى اللون الأصفر، ويحاول سقيها بماء زمزم كما كان يفعل أجداده، لكنه يفشل، ذلك المشهد يرمز إلى موت المعرفة البيئية التقليدية أمام آلة النفط[2].

2-شخصية "مصطفى النحاس": العقل الناقد والضمير البيئي المفكر

إذا كان مطر يمثل الوعي البيئي الفطري، فإن مصطفى النحاس يمثل الوعي البيئي النقدي، فهو شخصية مركبة تجمع بين البساطة والعمق، بين العيش في الواحة والاطلاع على العالم الخارجي، مصطفى هو الصوت الذي يشرح للمجتمع ما يحدث، وهو العين التي ترى ما لا يراه الآخرون، واللسان الذي ينطق بما لا يستطيع الآخرون التعبير عنه[3].

---

[1]- Lawrence Buell – The Environmental Imagination, Harvard University Press, P. 67.

[2]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 71-74.

[3]- المصدر نفسه ص 88.

من أبرز ما يميز شخصية مصطفى:

أ-ملاحظة التفاصيل البيئية الصغيرة:

مصطفى هو أول من يلاحظ أن لون الرمال تغير، وأن طعم الماء في الآبار الجوفية أصبح مرا، وأن الهواء صار ثقيلا برائحة الكبريت، وأن الطيور المهاجرة لم تعد تحط في الواحة كما كانت تفعل كل عام، هذه الملاحظات تبدو بسيطة، لكنها تشكل في مجملها تشخيصا علميا مبكرا للتلوث البيئي[1].

ب-محاولة تفسير الأسباب:

لا يكتفي مصطفى بالملاحظة، بل يحاول أن يفهم، يقرأ كل ما يقع تحت يده من أوراق تتحدث عن النفط، ويحاول ترجمة المصطلحات التقنية إلى لغة بسيطة يفهمها أهل قريته، في حوار طويل مع مطر، يقول: "ليس البترول كما تظن، ليس زيتا فقط، إنه سم يأكل الأرض من الداخل، ثم يخرج إلى السطح ليلتهم الناس"[2].

ج-التحذير المستمر:

يكرر مصطفى تحذيره: "سيأتي يوم تندمون فيه على كل قطرة بترول أخرجتموها"، هذه الجملة تصبح بمثابة لازمة بيئية في الرواية، تتردد في مناسبات مختلفة، وكأنها نبوءة تتحقق أمام أعين القارئ[3].

د-التحول من الدهشة إلى الصدمة إلى المقاومة الثقافية: يمر مصطفى بثلاث مراحل:

-الدهشة عند رؤية الآلات لأول مرة.

-الصدمة حين يدرك حجم الدمار البيئي.

-المقاومة الثقافية حين يحاول تنبيه الآخرين وتكوين وعي جمعي[4].

---

[1]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 92-95.

[2]- المصدر نفسه، ص 101.

[3]- المصدر نفسه، ص 126-130

[4]- المصدر نفسه، ص 126-130.

هذا التحول يجعل من مصطفى ضمير الرواية البيئي بامتياز، ولسان حال الطبيعة التي صارت عاجزة عن الدفاع عن نفسها، كما أنه يمثل نموذجا نادرا في الأدب العربي لشخصية روائية تجمع بين الحس البيئي والفكر النقدي والالتزام الإنساني[1].

3-الشخصيات النسائية: البيئة كجسد أمومي مهدد

تحتل النساء في "مدن الملح" موقعا خاصا في تمثيل العلاقة مع البيئة، إذ تجسدهن منيف كأكثر الفئات حساسية للتغيرات البيئية، وأكثرها تمسكا بالثقافة البيئية التقليدية[2]، يمكن تمييز ثلاثة نماذج نسائية رئيسية:

أ-أم حميدان: رفض الماء الملوث

أم حميدان امرأة عجوز تجاوزت السبعين، عاشت في الواحة منذ ولادتها، عندما تحفر شركات النفط آبارا جديدة، ويبدأ الناس في استخدام مياهها، ترفض أم حميدان رفضا قاطعا، لا تستطيع أن تشرح لماذا ترفض، لكنها تقول: "هذا الماء مريض"، رفضها ليس منطقيا بالمعنى العلمي، لكنه رفض جسدي غريزي، جسدها يعرف أن هذا الماء ليس ماءها، كما يعرف الطفل صوت أمه[3].

هذا الرفض يعبر عن نسق ثقافي بيئي أنثوي لا يعتمد على البرهان العقلي بل على الإحساس الجسدي والذاكرة الحسية، في النقد الثقافي، يسمى هذا "المعرفة المتجسدة" (embodied knowledge)، وهي معرفة لا تنتقل بالكتب بل بالعيش والاحتكاك[4].

---

[1]- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي ص 211.

[2]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 140.

[3]- المصدر نفسه ص 144 - 145

[4] -Val Plumwood, Environmental Culture, Routledge p. 98.

ب-فاطمة: الماء والخصوبة والموت

فاطمة هي الزوجة الشابة التي ترتبط خصوبتها ونماؤها بالماء النقي، عندما يبدأ الماء في التغير، تبدأ هي أيضا في المرض، يصف منيف كيف تذبل فاطمة كما تذبل النخلة، وكيف يصبح لون وجهها شاحبا مثل لون الرمال الميتة، هذا التشبيه المتعمد بين جسد المرأة وجسد الأرض هو من أبرز تقنيات منيف في تحويل البيئة إلى قضية إنسانية: موت الأرض هو موت الإنسان، وتلوث الماء هو تعقيم للحياة[1].

ج-الجمع النسائي: الرثاء البيئي

في مشاهد متفرقة، تجتمع نساء الواحة لرثاء النخيل الميت كما يرثين الموتى، يقرأن الفاتحة على جذوع متفحمة، ويندبن النخلة التي كانت تطعم الجياع، هذا المشهد الذي قد يبدو غريبا لقارئ مديني، هو في السياق الثقافي للواحات تطبيع كامل: النخلة فرد من الأسرة، وموتها يستحق الرثاء، منيف بذلك يكسر الفصل الحديث بين "الطبيعة" و "الثقافة"، ويظهر أن البيئة في الوجدان الشعبي ليست شيئا خارجيا، بل هي جزء من النسيج العائلي والروحي[2].

4-شخصية "ابن رشد" الجماعية: البيئة كذاكرة ونسق ثقافي

لم يقصر منيف تمثيل الثقافة البيئية على أفراد محددين، بل جعل منها سمة جماعية تتجسد في "أهل الواحة" ككيان واحد، أطلق عليه في بعض الإشارات اسم "ابن رشد" كاستعارة للوعي الجمعي[3]، هؤلاء الناس يعرفون، قبل مجيء شركات النفط:

- مواسم الأمطار من شكل الغيوم واتجاه الرياح.
- أماكن المياه الجوفية من نوع النباتات السطحية.

---

[1]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 153-156.

[2]- المصدر نفسه ص 161-164

[3]- المصدر نفسه ص 144-145

- مواعيد العواصف الترابية من سلوك الجمال والطيور.
- جودة التربة من لونها ورائحتها.
- وقت حصاد التمر من مرحلة اكتمال القمر[1].

هذه المعرفة ليست مجرد مهارات تقليدية، بل نسق ثقافي بيئي متكامل يحدد العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وينظم العمل والراحة والأكل والزواج والموت، إنها ذاكرة بيئية تنتقل شفاهة من جيل إلى جيل، وتتجسد في الأمثال والحكايات والطقوس.

عندما تصل الحفارات والآلات، يجد هذا النسق نفسه في مواجهة كائن غريب لا يفهمه، الاجتماعات التي يعقدها الرجال في "المجلس" لمناقشة موت النخيل أو تحول لون البحر، هي مشاهد درامية تعبر عن انهيار ذاكرة بيئية عمرها قرون، في أحد المشاهد، يحاول أحد الشيوخ تفسير موت النخيل بقوله: "ربما غضبت الجن"، هذا التفسير الأسطوري ليس جهلا، بل هو محاولة يائسة لفهم الكارثة بإطار ثقافي تقليدي لم يعد صالحا[2].

منيف هنا لا يسخر من هذا التفسير، بل يظهره كمأساة حقيقية: حين تفشل المعرفة البيئية التقليدية وليس هناك معرفة جديدة تحل محلها، يبقى الإنسان وحيدا أمام كابوس لا يفهمه[3].

5-شخصيات هامشية كأصوات بيئية خافتة

إلى جانب الشخصيات الرئيسية، هناك شخصيات ثانوية لعبت دورا رمزيا مهما في تشكيل الخطاب البيئي:

أ-الصبي "فايز": الجيل القادم الذي لن يعرف البيئة النقية

[1]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 171-175

[2]- المصدر نفسه، ص 182-184.

[3]- المصدر نفسه، ص 190.

فايز هو طفل يولد بعد وصول شركات النفط، لا يعرف الواحة الخضراء، ولا يعرف الماء العذب، ولا يعرف السماء الصافية، يصف منيف كيف يلهو فايز بالقرب من البرك الملوثة دون أن يدرك خطرها، وكيف يكبر ليرى منظرا من الكابوس بدلا من الواحة التي كان يحلم بها أهله، فايز هو رمز للاغتراب البيئي، الجيل الذي فقد ذاكرة الأرض، والذي سيعيش في صحراء ميتة دون أن يعرف أنها كانت جنة[1].

ب-العمال المهاجرون: ضحايا التلوث الصامتون

يستقدم مصطفى النحاس عمالا من مناطق بعيدة للعمل في شركات النفط، هؤلاء العمال لا يملكون أي علاقة ثقافية بالبيئة المحلية، وهم أول من يصاب بالأمراض الجديدة، منيف يصف كيف تتحول بشرتهم إلى اللون الأصفر، وكيف يسعلون دما، وكيف يموتون في صمت دون أن يهتم بهم أحد، هؤلاء العمال يمثلون الطبقة البيئية المهمشة، التي تتحمل العبء الأكبر للتلوث دون أن تجني من النفط سوى المرض والموت[2].

ج-المسؤولون المحليون: المتواطئون مع الاحتلال البيئي

في الطرف المقابل، هناك شخصيات مثل "أبو جهير" الذي يتعاون مع شركات النفط مقابل المال والسلطة، هؤلاء هم عملاء الاحتلال البيئي، الذين يبيعون الأرض والماء والهواء مقابل منصب أو رشوة. منيف يرسمهم بريشة ناقمة، ويريهم كأكثر الناس ضررا للبيئة، لأنهم يستخدمون سلطتهم المحلية لتسهيل تدميرها[3].

ثانيا: تحويل القضية البيئية إلى نسق ثقافي إنساني مقاوم

يقدّم عبد الرحمن منيف في خماسية مدن الملح تصورًا نقديًا للتحوّل العميق الذي أصاب البنية البيئية والاجتماعية في الجزيرة العربية مع اكتشاف النفط، حيث لم يعد هذا

---

[1]- عبد الرحمان منيف، المصدر السابق، ص 201-203

[2]- المصدر نفسه، ص 214-218.

[3]- المصدر نفسه، ص 225

الأخير مجرد مورد اقتصادي، بل أصبح قوة قادرة على إعادة تشكيل المكان والإنسان معا، وفي هذا الإطار تتبلور الثقافة البيئية بوصفها نسقًا رمزيًا وإنسانيًا مقاومًا للهيمنة النفطية، التي تتخذ شكل "احتلال بيئي" يعيد هندسة الطبيعة وفق منطق الشركات والربح.

1-الثقافة البيئية بين الانسجام الطبيعي وبداية الوعي المقاوم

تقوم الثقافة البيئية التقليدية في الرواية على علاقة تكاملية بين الإنسان ومحيطه الطبيعي (الصحراء، الواحة، البحر)، حيث يتشكل الوعي الجمعي عبر التكيف مع البيئة لا السيطرة عليها، غير أن دخول شركات النفط أحدث قطيعة مع هذا النسق، ما أدى إلى تفكك العلاقة العضوية بين الإنسان والمكان.

غير أن هذا التفكك لم ينتج استسلامًا مطلقًا، بل أسهم في ولادة وعي جديد مقاوم، يتجلى في التمسك بالذاكرة البيئية والعادات المرتبطة بالمكان، باعتبارها عناصر هوية مهددة بالزوال، هذا الوعي يمثل ما يمكن تسميته بنشوء "نسق بيئي مضاد"، يعيد إنتاج العلاقة بين الإنسان والأرض خارج منطق الاستغلال[1].

وفي هذا الصدد نجد السارد يقول: "كان وادي العيون بقعة من الجنة وسط الصحراء، وكان الناس يعيشون فيه كأشجار النخيل، يمتدون في الأرض ويصعدون إلى السماء، لا يفصلهم عن الطبيعة شيء، ولكن حين بدأت التحركات الأولى للغرباء، وحين بدأت الآلات تقترب، شعر متعب الهذال أن شيئاً ما يتهدد هذا الانسجام، قال للناس: إن الأرض التي نعيش عليها ليست مجرد تراب وماء، إنها روحنا، وإذا سمحتم لهم بلمسها، فستفقدون أنفسكم".[2]

2-شركات النفط كقوة لإعادة إنتاج المكان

[1]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 52.

[2]- المصدر نفسه، ص 25.

تُقدَّم شركات النفط في *مدن الملح* بوصفها فاعلًا استعماريًا حديثًا، لا يقتصر دوره على استخراج الموارد، بل يمتد إلى إعادة تشكيل المكان كليًا، فهي تدخل الصحراء باعتبارها فضاءً "فارغًا"، لتعيد بناءه عبر:

- شبكات الحفر والاستخراج
- الطرق والمدن الصناعية
- إعادة توزيع المجال الجغرافي والسكاني

هذا التحول يحوّل البيئة من فضاء للعيش إلى مجال إنتاج اقتصادي خاضع للمنطق الرأسمالي، وهو ما يشكل جوهر "الاحتلال البيئي" في الرواية[1].

حيث نجد المقطع التالي يبين ذلك: "جاءت الآلات الضخمة، الحديدية، السوداء، وبدأت تنهش جسد الوادي، اقتلعت أشجار النخيل التي عاشت مئات السنين وكأنها قشّ، وفي غضون أسابيع، لم يعد المكان هو المكان؛ اختفت الخضرة وظهرت الأنابيب والأسلاك البرية، وبُنيت البيوت الكرتونية والمجمعات المسيجة التي تفصل بين عالمين: عالم الغزاة وعالم أهل الأرض". [2]

3-البيئة كذاكرة مقاومة ضد الطمس

تتحول البيئة في الرواية إلى حامل للذاكرة الجماعية، حيث تصبح عناصر مثل النخيل والواحات والصحراء رموزًا لهوية مهددة، ومع تصاعد التدمير البيئي الناتج عن النفط، يظهر الحنين إلى المكان القديم بوصفه شكلًا من أشكال المقاومة الرمزية، هذه المقاومة لا تتخذ طابعًا سياسيًا مباشرًا، بل تتجسد في الذاكرة والوجدان، حيث تصبح البيئة القديمة "نصًا مضادًا" للنظام الجديد القائم على النفط والتكنولوجيا[3].

---

[1]-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989، ص 112.

[2]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 85.

[3]- حسن نجمي، السرد والهوية دار توبقال، الدار البيضاء، 2000، 78

وهو ما يظهر في المقطع التالي: "كان متعب الهذال يدور حول المكان القديم، ينظر إلى الرماد والحديد ويبكي، لكنه كان يرى في عينيه الوادي القديم، يرى مجرى الماء القديم وظلال النخل، كان يقول إنهم يستطيعون صبّ الإسمنت فوق الأرض، لكنهم لا يستطيعون محو رائحة المطر ورائحة أجدادنا المخبوءة تحت هذا الإسمنت"[1].

4-مقاومة التحديث المفاجئ وإعادة إنتاج الهوية البيئية

في مواجهة التحديث القسري الذي فرضته الشركات النفطية، يظهر شكل من المقاومة الثقافية يتمثل في:

- التمسك بالعادات البيئية القديمة
- رفض بعض مظاهر الحياة الصناعية
- إعادة إنتاج الهوية عبر الرموز الطبيعية

هذه المظاهر تؤكد أن الصراع في الرواية ليس اقتصاديًا فقط، بل هو صراع بين نسقين ثقافيين: نسق بيئي تقليدي عضوي، ونسق صناعي رأسمالي دخيل[2].

حيث يقول السارد: "لم يكن الناس في حران يعرفون كيف يتعاملون مع هذا البحر من الحديد والآلات والصخب الذي انفجر فجأة في صحرائهم الوديعة، شعروا بالغربة في بيوتهم الجديدة، فبدأوا يعيدون بناء حياتهم داخل بيوت الصفيح بطريقتهم الخاصة؛ يزرعون نبتة صغيرة هنا، ويتجمعون في الحلقات القديمة هناك، محاولين استيلاد قريتهم الراحلة من قلب هذا الغول الصناعي". [3]

5-من الاحتلال البيئي إلى تشكل وعي نقدي

---

[1]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 115.

[2]- محمد صابر عبيد، السرد العربي الحديث: مقاربات نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2005، 133.

[3]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 155.

مع تعمق التحول النفطي، يتبلور وعي نقدي لدى الشخصيات، يدرك أن ما يحدث ليس تطورًا طبيعيًا، بل عملية إعادة تشكيل قسرية للمكان والإنسان، هذا الوعي يمثل المرحلة الأرقى من المقاومة، حيث تتحول البيئة نفسها إلى أداة لفهم آليات الهيمنة الحديثة، وليس مجرد ضحية لها، وفي هذا السياق يقول السارد: ""إنهم لا يسرقون النفط فقط، إنهم يغيرون طبائع الناس ويسممون الهواء والماء، إن هذه الشركات جاءت لتبقى فوق صدورنا، والسكوت يعني الاندثار،" (من نقاشات العمال والملتحقين بالحراك مثل فواز ومجموعة العمال في حران).

يتضح أن الثقافة البيئية في مدن الملح لا تنفصل أمام الهيمنة النفطية، بل تتحول إلى نسق مقاوم يتجلى في الذاكرة والرمز والوعي النقدي، فالرواية تعيد تعريف "الاحتلال" بوصفه احتلالًا للمكان والذاكرة معًا، مما يجعل البيئة نفسها مجالًا للصراع الثقافي وليس مجرد خلفية طبيعية.

بعد هذا العرض الموسع لتجليات الإنسان والبيئة في الرواية، يمكننا أن نسأل: لماذا لم يكتفِ منيف بتصوير التلوث والدمار البيئي؟ ولماذا أصر على جعل الشخصيات هي الوسيلة الأساسية لنقل الخطاب البيئي؟

الجواب: لأن منيف كان يدرك أن القضية البيئية ليست قضية "طبيعة" فقط، بل هي قضية ثقافة وهوية وسياسة، عندما تموت النخلة، لا يموت نبات فقط، بل تموت معها ذاكرة وتاريخ ونظام حياة كامل.

- قصة كانت تروى عنها.
- عادة كانت مرتبطة بجني تمرها.
- حكاية حب كانت تحدث في ظلها.

- ذاكرة طفولة لصبي كان يتسلق جذعها[1].
- لهذا، فإن الدفاع عن البيئة في رواية منيف ليس دفاعا عن "الطبيعة" بالمعنى التجريدي، بل دفاع عن نسق ثقافي كامل مهدد بالاندثار.

ومن هنا، يمكن تحديد ثلاث طبقات للقضية البيئية في الرواية:

الطبقة	المضمون تجليها في الشخصيات
بيئية فيزيائية	تلوث الماء والهواء والتربة، ملاحظات مصطفى، موت النخيل، مرض فاطمة.
ثقافية هوياتية	تدمير نمط حياة وذاكرة جماعية، بكاء مطر على نخيله، رثاء النساء، تفسيرات الشيوخ الأسطورية
سياسية مقاومة	صراع بين قوى محلية وعالمية، رفض أم حميدان، تحذيرات مصطفى، تواطؤ أبو جهير.

بهذا، يصبح خطاب البيئة في "مدن الملح" خطابا مقاوما للرأسمالية المتوحشة التي تمثلها شركات النفط، وللنموذج التنموي الذي يضحي بالأرض والإنسان من أجل الربح، وهذه هي أعلى درجات توظيف القضية البيئية في الأدب: تحويلها من قضية محلية أو تقنية إلى قضية إنسانية كبرى تتداخل فيها الثقافة والسياسة والوجود[2].

من خلال التحليل السابق، يمكن القول إن الشخصيات الروائية في "مدن الملح" جسدت ثلاثة مستويات من الوعي البيئي:

-**الوعي الفطري الحسي** (مطر، أم حميدان، النساء): علاقة حب وتقديس ورفض غريزي للملوثات.

-**الوعي النقدي التحليلي** (مصطفى النحاس): تفسير وتشخيص وتحذير ومقاومة ثقافية.

[1]- عبد الله الغذامي، المصدر السابق، ص 230-231.

[2]- عبد الرحمن منيف، المصدر السابق، ص 240 -245

-**الوعي الجمعي الذاكري (الجماعة، ابن رشد، الشيوخ :(**نسق بيئي متكامل ينهار تحت وطأة الحداثة النفطية[1].

وهذه المستويات الثلاثة تشكل معا "ضمير البيئة" في الرواية، الذي يحاول أن يصد الاحتلال البيئي، لكنه ينهار أمام آلة النفط التي لا تعرف الرحمة، ومع ذلك، فإن صوت هذه الشخصيات يظل مسموعا بعد عقود من صدور الرواية، مما يجعل "مدن الملح" واحدة من أبرز الأعمال الأدبية العربية في مجال الأدب البيئي والنقد الثقافي[2].

[1]– سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي ص 88

[2] –Greg Garrard, Ecocriticism, p. 120

ملحق

ملخص رواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف

لمحة عامة عن الرواية

"مدن الملح" هي الرواية الأولى في خماسية تحمل نفس الاسم للروائي العربي عبد الرحمن منيف (1933–2004)، صدرت عام 1984 عن دار الآداب في بيروت، تعد من أهم الأعمال الروائية العربية في القرن العشرين، وقد ترجمت إلى عدة لغات، وحظيت باهتمام نقدي واسع، تصنف ضمن تيار الرواية السياسية العربية، وتتميز بأسلوبها الملحمي الذي يمتد على أكثر من 600 صفحة، يقول الناقد إدوارد سعيد عنها: "العمل الروائي الجاد الوحيد الذي يحاول إظهار تأثير النفط والأمريكيين والأوليغارشية المحلية على بلد خليجي."

الأحداث الأساسية

تبدأ الرواية في وادي العيون، وهي واحة خصبة تقع في إمارة خليجية غير محددة، إلى حد كبير في ثلاثينيات القرن العشرين، الرواية تبدأ بأجواء شبه مثالية تصف نمط الحياة التقليدي البسيط والمستقر لسكان الوادي، الذين عاشوا لقرون على الزراعة والتجارة، وقبلتهم القوافل القادمة من الجزيرة العربية.

مع اكتشاف النفط، يصل بعثة أمريكية إلى الوادي بقيادة شركة نفط غير مسماة، يتبعها عمال ومرافقون ومترجمون ومعدات ضخمة وآليات ثقيلة، هذه اللحظة هي نقطة التحول الحاسمة في الرواية، حيث تبدأ عملية مسح جيولوجي وحفر الآبار التي تغير كل شيء.

مراحل التغيير والتدمير:

1–**تدمير الوادي:** يتم تجريف النخيل والأشجار بواسطة الجرافات التي يصفها منيف بأنها كانت تمزق الأرض بـــ"شراهة وحشية"، وتتحول الواحة الخضراء إلى أرض قاحلة، يقول منيف إن "الأشجار صرخت طلبا للمساعدة، وولولت، شعرت بالذعر، نادت في ألم عاجز ثم سقطت متوسلة إلى الأرض، وكأنها تحاول الانكماش في التراب لتنمو وتنبعث حية من جديد."

2-**النزوح واللجوء:** يضطر سكان الوادي إلى الهجرة والتشتت، من يقرر البقاء يجد نفسه مجبرا على العمل بأجر زهيد لصالح الشركة الأمريكية في ظروف قاسية.

3-**ولادة "حران"**: تتحول قرية ساحلية صغيرة إلى مدينة نفطية مزدهرة، تعرف بـــ"حران"، لكن التحضر هنا مرير، إذ تقسم المدينة إلى قسمين: حي أمريكي فاخر (المركب) بمرافق حديثة ومسبح وحدائق، وحي عربي فقير مزدحم بأكواخ الصفيح وثكنات العمال غير الآدمية.

الشخصيات الرئيسية

- **متعب الهذال:** شيخ وقائد محلي وزعيم روحي تقليدي، بعد ملاحظته للدمار الذي حل بالوادي، اختفى فجأة في الليل، ليتحول لاحقا إلى شخصية أسطورية أو شبح يطل على المجتمع المنكوب ويذكرهم بكرامتهم المفقودة.

- **الأمير خالد:** حاكم الإمارة الذي يتحول إلى دمية في أيدي الأمريكيين وحاشيته، يصاب بالهوس بالتكنولوجيا الغربية، بدءا بالسيارة التي يسميها "فورد"، ثم الراديو والهاتف، وتتدهور حالته النفسية والجسدية تدريجيا.

- **مبارك بن رشيد:** شخصية وصولية تعاونت مع الشركة الأمريكية، وأصبح من خلالها وسيطا قويا بين العالمين، يمثل الرأسمالية المحلية الجديدة التي استفادت من تدمير مجتمعها.

-**صبحي المحمصي:** طبيب ومستشار السلطان، وخبير استراتيجي ماكر لعب دورا محوريا في ترسيخ النظام الجديد، تظهر شخصيته بشكل أكبر في الأجزاء التالية من الخماسية.

الأفكار والرسائل:

-**الصدام الحضاري والاستعمار الجديد:** النفط قادم بشكل أساسي على شكل استعمار جديد، يتحكم في البنية الاجتماعية والاقتصادية بالقوة وليس بالجيوش، الشركة الأمريكية كيان استعماري حقيقي يحدث تبعية كاملة ويفرض تسلسلا هرميا اجتماعيا جديدا.

- **نقد "ذريعة النفط:** سلط منيف الضوء على الزمرة الجديدة من الأغنياء والسماسرة والتابعين الذين نهبوا ثروات البلاد وتحالفوا مع الشركات الأجنبية لاستغلال الشعب.

- **الاغتراب والتفكك:** الشخصيات في الرواية ضائعة وتعاني من فقدان هويتها، تحول العمال من أسياد لأرضهم إلى مجرد سلعة تباع وتشترى، ويعانون من مشاعر العجز والغضب.
- **التكنولوجيا كسيف ذو حدين:** التكنولوجيا التي جلبتها الشركة الأمريكية (السيارات والطائرات والراديو) مرعبة وساحرة في نفس الوقت، يعتبرها الأمير لعبة، بينما يراها المتدينون من عمل الشيطان.
- **الصدع الاجتماعي** :الخلاف بين أولئك الذين يحاولون الحفاظ على الماضي (الشيخ متعب) وأولئك الذين ينغمسون في الحاضر الجديد (الأمير والسماسرة).

أسس منيف، وهو خبير اقتصادي في مجال النفط، روايته على معرفة عملية عميقة، لكن المفارقة أن النفط نفسه لا يظهر أبدا في الصفحات الأولى من الرواية، المترجم بيتر ثيروكس قال: "أبدا لا ترى النفط، على الرغم من أنه يتدفق بشكل غير مرئي في كل صفحة".

استخدم منيف تقنية الزمن البطيء والحبكة المترامية الأطراف التي لا تركز على بطل واحد بل على مصير جماعة بأكملها، كما استخدم الرمزية – فـ"مدن الملح" تحمل دلالة عميقة؛ فهي مدن مبنية على الملح، سرعان ما تذوب وتنهار عندما تغمرها المياه، وهذا إشارة إلى هشاشة أي مجتمع مبني على الثروة دون أساس ثقافي أو اجتماعي متين، منهج الرواية ليس خطيا، بل يعتمد على التداخل والتكرار، مما يخلق نسيجا سرديا متكاملا يوحي بضخامة الأحداث المأساوية.

أخيرا، قيل عن الرواية إنها "أعظم رواية نفطية" كتبت بعد الحرب العالمية الثانية، وهي ليست مجرد قصة عن النفط، بل وثيقة تاريخية واجتماعية تحكي كيف دمرت ثقافة بأكملها، وكيف يمكن للمال أن يعيد تشكيل العلاقات الإنسانية لتصبح علاقات قوة واستغلال، إنها بمثابة "الأشياء تتداعى" للمنطقة العربية، رواية تأسيسية لواقع لم ينتهِ بعد، كما منعها في أغلب الدول العربية.

خاتمة

خاتمة:

في ضوء ما سبق، تتضح الأبعاد العميقة التي تنطوي عليها رواية «مدن الملح» لـــ عبد الرحمن منيف، بوصفها نصا روائيا يتجاوز الحكي إلى بناء خطاب نقدي يكشف اختلال العلاقة بين الإنسان وبيئته، فمن خلال العتبات السيميائية، وعلى رأسها العنوان، ومن خلال البنية السردية، تبرز الرواية مأساة التحول الذي أصاب الفضاء الصحراوي بعد اكتشاف النفط، حيث تحول التوازن الطبيعي إلى فوضى بيئية، وتحول الإنسان من كائن منسجم مع محيطه إلى عنصر مهيمن ومدمر له.

لقد استطاع الكاتب أن يجعل من البيئة عنصرا فاعلا في تشكيل المعنى، لا مجرد خلفية للأحداث، كاشفا عن هشاشة الحضارة الحديثة عندما تقوم على استنزاف الموارد الطبيعية دون وعي أو مسؤولية، وهكذا، تقدم الرواية رؤية نقدية لما يسمى بالتقدم، وتطرح تساؤلات جوهرية حول مصير الإنسان في ظل عالم تحكمه المادة والمصلحة كما يشكل النفط في رواية مدن الملح رمزا مركزيا تتقاطع فيه دلالات متعددة، إذ لا يظهر بوصفه مجرد مورد اقتصادي، بل كقوة مدمرة تعيد تشكيل المكان والإنسان معا، فمن الناحية السيميائية، يحيل النفط إلى التلوث البيئي، حيث يرتبط ظهوره في الرواية بتخريب الواحات، وقطع الأشجار، وتشويه معالم الطبيعة الصحراوية، مما يؤدي إلى فقدان التوازن البيئي الذي كان سائدا قبل اكتشافه.

وفي مستوى أعمق، يرمز النفط إلى الجشع الإنساني، إذ يكشف عن نزعة السيطرة والاستغلال التي يمارسها الإنسان، سواء المحلي أو الأجنبي، في سعيه وراء الثروة والسلطة. فبدل أن يكون وسيلة للتنمية المتوازنة، يتحول النفط إلى أداة للهيمنة، تغذي علاقات غير متكافئة، وتؤدي إلى تهميش الإنسان البسيط وإقصائه من أرضه.

كما يعكس النفط تحول القيم، حيث تستبدل العلاقات الإنسانية البسيطة بمنطق الربح والخسارة، ويحل الاستهلاك محل الانسجام مع الطبيعة، وبهذا المعنى، يصبح النفط علامة على انهيار المنظومة الأخلاقية والبيئية في آن واحد.

إن هذا الرمز يكثف رؤية الرواية النقدية، التي تدين النموذج الحضاري القائم على الاستغلال المفرط للموارد، وتحذر من عواقبه الوخيمة، مؤكدة أن أي تقدم لا يراعي التوازن البيئي والإنساني هو تقدم هش، أشبه بـــ"مدن من ملح" مآلها الزوال.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- عبد الرحمن منيف، مدن الملح: التيه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط11، بيروت، 2005.

ثانيا: المراجع باللغة العربية.

- إدوارد سوجا، جغرافيا ما بعد الحداثة: إعادة بناء المكان في النظرية الاجتماعية، ترجمة: سعيد الغامدي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010
- بلعابد، عبد الحق، مدخل إلى عتبات النص (مقاربة جيرار جنيت)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008
- جرارد جرد، النقد البيئويEcocriticism ، ترجمة عزيز صبحي جابر، مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ضبي، 2009.
- جيرار جنيت، عتبات(Seuils) ، ترجمة عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2008
- حسن نجمي، السرد والهوية دار توبقال، الدار البيضاء، 2000
- حمداوي، جميل، "السيميائيات وعتبات النص الأدبي"، مجلة علامات، المغرب، العدد 17، 2003
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989.
- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة: دراسات في الأدب العربي القديم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006
- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي.
- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ط2، 2005
- علي حرب، النص والحقيقة: نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 1993
- مايكل برانش، النقد الإيكولوجي. تر: معي رومية، مجلة نوافذ، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد 36، 2007.

- محمد صابر عبيد، السرد العربي الحديث: مقاربات نقدية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2005.
- محمد عابد الجابري، العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية (مدخل عام للثقافة والمجال)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009
- مصطفى ناصف، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس، بيروت، 1981
- موحوش خيرة، الترجمة والأدب البيئي: مقاربة نظرية وتطبيقية في سياق الرواية، مجلـــة في الترجمةIn Translation/، المجلد 12، العدد 1، ديسمبر 2025.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية.

- Buell, L. The environmental imagination: Thoreau, nature writing, and the formation of American culture. Belknap Press of Harvard University Press, 1995.
- Dahal, A. The Ecological Vision of Space in Gary Snyder's Ecopoetry. Interdisciplinary Journal of Management and Social Sciences, 2(2), 2021.
- Kovářová, K. What else can nature mean: An ecocritical perspective on cormac McCarthy's fiction. Theory and Practice in English Studies, 2019.
- Lawrence Buell – The Environmental Imagination, Harvard University Press.
- Val Plumwood, Environmental Culture, Routledge.
- Glotfelty, Cheryll & Fromm, Harold (eds.), The Ecocriticism Reader, University of Georgia Press, 1996.

فهرس المحتويات

شكر وعرفان
إهداء
مقدمة أ

مدخل معرفي: مفهوم الأدب البيئي وخصائصه

أولا: الأدب البيئي المفاهيم والبدايات 07
ثانيا: تطور الأدب البيئي وأبرز أعلامه 09
ثالثا: الخصائص الأدبية للأدب البيئي 14

الفصل الأول: العنوان وإحالاته على قضايا البيئة: دراسة سيميائية في عتبات رواية "مدن الملح"

أولا: دلالة العنوان: "مدن الملح" بين الثبات والزوال: 17
ثانيا: إحالات العنوان على البيئة الطبيعية: 19
ثالثا: تحولات المكان كمؤشر بيئي 21
رابعا: البيئة المدمرة: نقد التحديث المفاجئ 24
خامسا: وصف البيئة قبل النفط في رواية "مدن الملح" (ثلاثية البحر، الصحراء، الواحة وحياة الإنسان) 25
سادسا: تيمة البترول وصدمة البيئة في رواية "مدن الملح 27

الفصل الثاني: الأنساق الثقافية والتقنيات السردية للخطاب البيئي في رواية مدن الملح

أولا: الشخصيات الروائية باعتبارها ضميرا للبيئة 32
ثانيا: تحويل القضية البيئية إلى نسق ثقافي إنساني مقاوم 38
ملحق 46
الخاتمة 50
قائمة المصادر والمراجع 53
فهرس المحتويات 56

ملخص الدراسة :

تتناول هذه الدراسة الموسومة بـــ "تجليات الخطاب البيئي في رواية مدن الملح لعبد الرحمان منيف – قراءة في النسق الثقافي "-أحد أهم التوجهات النقدية المعاصرة والمتمثل في "النقد البيئي(Ecocriticism) "، من خلال تتبع حضور الطبيعة وعناصر البيئة بوصفها ركائز موضوعاتية وأنساقاً ثقافية فاعلة في تشكيل الرؤية السردية وإنتاج الدلالات الفكرية والجمالية داخل الرواية. وتهدف الدراسة إلى الكشف عن طبيعة الخطاب البيئي الموظف في خماسية "مدن الملح"، وبيان الكيفية التي تجسدت بها التحولات البيئية والمكانية (كالتحول من بيئة الواحة والبداوة إلى بيئة النفط والمدن المستحدثة)، ورصد الأنساق الثقافية المضمرة التي تحكم علاقة الإنسان بمحيطه الحيوي في ظل التغيرات السوسيو–اقتصادية والسياسية التي عالجها الكاتب.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي مستعينة بأدوات النقد الثقافي، من خلال استنطاق النصوص والوقوف على التجليات البيئية المباشرة والمضمرة، وتفكيك المركزية البشرية في تعاملها مع الطبيعة داخل الفضاء الروائي، وإبراز العلاقة التفاعلية بين تدمير البيئة وظهور مظاهر الاستعمار والاستهلاك الحديث.

وتوصلت الدراسة إلى أن الكاتب وظف الخطاب البيئي ليس بوصفه مجرد فضاء خلفي للأحداث، بل كعنصر فاعل ومقاوم يعكس الصراع بين أصالة الطبيعة وزحف المدنية النفطية؛ حيث تنوعت الأنساق بين بيئة الواحة وبيئة "مدن الملح" . وأظهرت الدراسة أن رواية "مدن الملح" تحمل في عمقها نسقاً ثقافياً بيئياً يستشرف مآلات الاستغلال المفرط للأرض، وتشكّل صرخة إبداعية لحماية الهوية البيئية والإنسانية من التدمير والمسخ الاستعماري.

الكلمات المفتاحية :الخطاب البيئي، مدن الملح، عبد الرحمن منيف، النقد الثقافي، النسق الثقافي، الرواية العربية.

Abstract

This study, entitled "Manifestations of Environmental Discourse in the Novel Cities of Salt by Abdel Rahman Munif –A Reading of the Cultural System," addresses one of the most important contemporary critical trends represented by "environmental criticism" (Ecocriticism), by tracing the presence of nature and environmental elements as thematic pillars and active cultural systems in shaping the narrative vision and producing intellectual and aesthetic connotations within the novel. The study aims to reveal the nature of the environmental discourse employed in the "Salt Cities" quintet, and to show how environmental and spatial transformations were embodied (such as the shift from the oasis and Bedouin environment to the oil environment and new cities), and to monitor the implicit cultural systems that govern man's relationship with his biosphere in light of the socio-economic and political changes that The writer dealt with it.

The study relied on the descriptive analytical approach, using the tools of cultural criticism, by interrogating texts and identifying direct and implicit environmental manifestations, deconstructing human centrality in its dealings with nature within the novelistic space, and highlighting the interactive relationship between environmental destruction and the emergence of manifestations of colonialism and modern consumption.

The study concluded that the author employed environmental discourse not merely as a background space for events, but as an active and resistant element that reflects the conflict between the authenticity of nature and the encroachment of oil civilization. The patterns varied between the oasis environment and the environment of the "salt cities" . The study showed that the novel "Cities of Salt" carries within it an environmental cultural system that anticipates the consequences of excessive exploitation of the land, and constitutes a creative cry to protect environmental and human identity from colonial destruction and distortion.

Keywords: environmental discourse, salt cities, Abdul Rahman Munif, cultural criticism, cultural system, Arabic novel.


تم بحمد الله